أساور دهشة

سناء أبو شرار

الكتاب : أساور مهشمة (رواية)

المؤلف : سناء أبو شرار

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٩٥٦٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 003 - 4

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٠٢)- ٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف: محمود ناجيه

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

أساور مهشمة

رواية

سناء أبو شرار

شمس
للنشر والتوزيع

إهداء

لن أهدي روايتي لأشخاص

ولكن للإرادة التي زرعها الله في نفوسنا

والتي يُصر البعض على قتلها

ولكن الله يُحييها كلما كادت أن تلفظ أنفاسها

لا أدري هل أستطيع أن أكتب تلك المعاناة التي دامت سنينًا طويلة على بعض الصفحات التي قد يقرأها أحدٌ ما؛ قد يقرأها ويتألم لفترة، وقد يتذكر ما قرأه في فترة أخرى.. ولكنها لا تستطيع أن تضع معاناتي جانبًا، لا أستطيع أن أتألم لفترة ما، ولا أستطيع أن أنسى حينًا وأتذكر أحيانًا أخرى...

إنها هنا في جنبات صدري وفي خبايا أفكاري تجعلني أرى الحياة بعيوني الدامعة، ويتحول الوجود إلى قلب ينبض خوفًا... لا يزال كل الوجود من حولي يتأرجح بين الأمن والذعر، فأنا من القلائل في هذه الحياة الذين رأوا وجهًا وحشيًا للذات البشرية...

هل تتحول الدماء والدموع إلى حبر أسود على أوراق جافة؟ هل ما سأكتبه سوف يغير وجه الحقيقة الدامية الكامنة بأعماقها؟ وهل تحرر حروفي وكلماتي خوفي من الحياة وممن يعيش حولي؟ وهل تُعيد لي كلماتي المكتوبة إنسانيتي المحتضرة؟

ما أن أمسك القلم أريد أن أكتب ذكرياتي محاولةً أن أكون مثل أي إنسان يكتب ذكرياته أو جزء من ذكرياته.. حتى يظهر الماضي بأنيابه الحادة ويكشف من جديد عن براثنه، فأعود من جديد ضحية تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة، وأدرك تمامًا بأنني لم أنسى؛ ولن أنسى، أو بالأحرى لن أستطيع التماثل للشفاء من ذكرياتي.

لقد جربت أن أسافر لأنسى، وأن أتحدث عما مررت به، وأن أجلس لساعات وأتذكر وأفكر بأنني لم أكن المذنبة.. وكل تلك المحاولات لم تجعل نفسي تتماثل إلى الشفاء، وكأن تلك الذكريات سرطان خبيث التهم شبابي وجزءًا من حياتي... وهاهو الآن ينقض على ما تبقى منها كلما حاولت أن استأصله بمشرط النسيان.

وكان لابد أن أبحث عن طريقة ما للشفاء أو لتسكين الألم المزمن الذي يجول دون تعب بصدري.. أنام ويستيقظ ألمي النفسي الرهيب، ويُطل عبر كوابيس آتية من عالم كان واقعيًا فيما مضى.. فما هو كوابيس بالنسبة للبعض كان واقعًا حقيقيًا بالنسبة لي... أسير في الشوارع التي أحبها وأردد لنفسي بكل خطوة بأن كل المعاناة التي مررت بها انتهت، لكنني أراها تمتد أمامي تسير عليها خطواتي ولكن لا تستطيع أن تدمرها... أنظر للوجوه التي تُحبني، لكنني أبحث عن من أحبهم ولا أستطيع أن أراهم... فأنا ميتة بالنسبة لهم، وهم أحياء أموات بالنسبة لي.

كم من الدموع ذرفت عيناي وكم من المرات علا الأنين روحي وصدري وقلبي.. ولا أستطيع أن أبوح بالألم الجاثم على كل وجودي... لا أريد أن يكون وجودي ثقيلاً بالنسبة للآخرين كما هو ثقيل بالنسبة لي...

صوتٌ ضعيفٌ ناداني.. وقلمٌ نحيفٌ دعاني لعالمه الصامت... أمسكتُ بقلمي الخجول واستجبت لندائه.. فلطالما أحببت صوت القلم حين يخط الحروف والكلمات والأشكال على الأوراق.. ذلك الصوت الموسيقي الخافت الضعيف هو الذي دفعني لأن أكتب.. تلك العلاقة الحميمة ما بيني وبين قلمي النحيف هي التي أخرجتني من عالم الظلام الذي قبعتْ به ذكرياتي، والتي لم تكن تريد أن تخرج لعالم النور فتجف وتشعر روحي بأنها خفيفة من جديد؛ ذكريات مظلمة سوداء ومبللة بالدموع والدماء.. ولأن جميع الوسائل عجزت عن إخراج ذكرياتي من قبوها الرطب، فسوف يكون قلمي النحيف آخر أمل لي بانتزاع ذكرياتي من قبوها، وأن أراها متناثرة في الهواء وتحت أشعة الشمس، وأن أستطيع حملها أو إبعادها كما أشاء، لأنها ستصبح خفيفة وشفافة... فهل يستطيع هذا القلم النحيل الخجول أن يطرد الوحش الرابض بأعماقي؟

(٢)

السعادة القليلة التي أذكرها من حياتي؛ هي عدم معرفتي الحقيقية للحياة.. حين كنتُ أرسم صورًا جميلة لما ستكون عليه حياتي عندما أصبح امرأة... وعلى صفحة نفسي الرقراقة رسمت ملامح من أحب، وفي كل مرة كنتُ أغير الملامح وأرسم أخرى.. ورأيت الأحداث السعيدة تتماوج في نفسي كأمواج صيفية على أحد الشواطئ الذهبية... تلك الصور التي رسمتها لسعادتي القادمة كانت سعادتي الوحيدة بالحياة، ووجه ذلك الذي أحب بقي في صدري وجهًا خياليًا لرجل لم يأت أبدًا ...لذلك كانت سعادتي دائمًا كأحلام يقظة لا أملك منها إلا تجوالها بصدري... وفي وقت مبكر جدًا سُلبت مني حتى أحلام يقظتي، بل وأحلام نومي، وكل ما يمكن أن أمتلكه بيدي أو بأفكاري.

يوجد نوع من البشر مسالم لا يجادل الحياة ولا يجادل الآخرين، يستقبل أحداث الحياة بالخضوع والمعرفة المُسبقة بأن هذا الذي يجب أن تكون عليه الأشياء، حتى لو أحس بالظلم، لا يتمرد ولا يتذمر، لأنه لا يريد أن يصطدم بما قد يتغلب عليه وما قد لا يتغلب عليه.. وأنا كنت من هذا النوع المسالم.. لم أنتظر من الحياة الشيء الكثير، بل انتظرت ما قد تقدمه لي برضا وقبول.

وحين طرق باب بيتنا، لم أعترض، فلابد أنه سيكون زوجًا مثل بقية الأزواج، وسوف أُحبه ونؤسس عائلة سعيدة معًا... لم أتأمل ملامحه كثيرًا، لأنني أحببت فكرة أن أكون متزوجة؛ أكثر من حبي لرجل معين، فأي رجل سيكون زوجي لابد أن أُحبه.

أتذكر كلمات والدتي البسيطة عن الزواج، لأنها عاشت زواجًا تقليديًا بسيطًا، وأراه الآن حلمًا بعيدًا بالنسبة لي، فزواجي ليس تقليديًا وليس بسيطًا... لم تعرف والدتي بأن هناك أنواعًا أخرى من الزواج، أنواعًا تعيد تشكيل الذات الإنسانية؛ إما تشوهها أو تُجملها.

تقدم لخطبتي، ولكنه في الحقيقة أتى ليعرض علي حياة أخرى لم أعرف عن تفاصيلها إلا القليل من بين الأكاذيب التي قالها.. وأنا صدقت، أو أردت أن أصدق، ووالدتي كذلك، أرادت أن تصدق، فهو موظف في إحدى أجهزة الأمن.. بالنسبة لتفكير والدتي البسيط كان هذا الرجل هو ما تحلم به أي فتاة، خصوصًا بطريقة حديثه الواثقة وكلماته القليلة التي يُفصح بها عن مدى السلطة التي يتمتع بها، أكثر مما يُعبر عن نفسه وعن أفكاره.

وأنا ابنة الواحد وعشرون عامًا بأفكاري الطفولية عن الرجل شعرت بأن هذا الرجل هو الذي أريد، طريقته الجادة بالجلوس،

الكلمات المُقتضبة، ونظراته المتفحصة لكل ما حوله...كانت تلك هي مفاهيمي البدائية حول ما يجب أن يكون عليه الرجل... وأمام كل ذلك الغموض والجدية، بجانب وظيفته التي أخبرنا بأنها مهمة وقفتُ أنا وأمي سعيدتين بزوج المستقبل.

لم تطالبه أمي بالكثير، قالت له:

- نريد رجلاً يحمي ابنتنا ويحافظ عليها، ولا يهمنا أي شيء آخر.

رافقنا لنشاهد بيت الزوجية.. وحين فتح الباب، شعرتُ بانقباض شديد، كان لون كل قطعة من الأثاث بني غامق.. وكأن ذلك الأثاث الجامد أراد أن يُحذرني من دخول ذلك البيت... قالت له أمي بخجل:

- ولكن أين غرفة النوم؟

- سوف أُحضرها قريبًا.

قلتُ له بخجل أشد:

- أ لا نستطيع تغيير الأثاث؟.. فلونه بني غامق ولا أحب.....

وشعرت بيد أمي تضغط بقوة على يدي؛ فلم أُتابع كلامي... ودون أن ينظر لي قال:

- سوف نُغيره في المستقبل دون استعجال.. أنا الآن مستعجل لأجل الزواج، لأنني مشغول بعملي، وسوف نغير كل ما يحتاج للتغير بالمستقبل.

وعندما عدنا للبيت، قلت لأمي بغضب:

- لماذا منعتني من الحديث؟ الأثاث بشع ولونه أبشع..

- يا ابنتي لقد حصلتِ على زوج ممتاز، ولا تهم هذه الشكليات.. لا أريد أن نُرهقه بالطلبات فيمل ويبحث عن فتاة أخرى... وكما قال لك سوف يشتري ما ترغبين به لاحقًا.

(٣)

كان خجلي في بيت أهلي ميزة كبيرة لـي، فـذلك الخجـل جعلـني أقرب لأمي وإخوتي، بل ولكل الناس، لم يكن خجلاً متصنعًا بل حقيقيًا، فقد كنت أخجل من أفكـاري ومـن رغبـاتي، كنـت أرى صـديقاتي اللـواتي سـيتزوجن، وأرى السـعادة تشـرق علـى وجوههن وأسمع أحاديثهن عن الأثاث الذي اشترينه وعن الذهب الذي سيتم ارتدائـه في حفـل الزفـاف بـل وعـن حفـل الزفـاف وتفاصيله... وأجلس صامتة بينهن، وحين يسألنني أجيب بخجل:

- سوف يشتري لي كل شيء لاحقًا...

وأعود لأمي وأسألها بخجلي المعهود:

- أمي.. لماذا لا تطلبين منه أن يشتري الذهب، فهو لم يحضر شيئًا؟ والأثاث، فهو لم يشتري منه شيئًا؟ ثم حفل الزفاف، لماذا لا نتحدث عن تفاصيله؟

- انتظري يا سهاد..كلُّ شيءٍ بأوانه.

ويقول أخي الصغير:

- اسمعي يا أمي.. لا أحب هذا الرجل، وأحسن لـ"سـهاد" أن لا تتزوجه...

فتنهره أمي... وأنظر إليه صامته وأقول لنفسي إن إحساس الأطفال أصدق من منطق الكبار، ولكن هل أستطيع أن أقول لأمي بأنني لا أريد أن أتزوج بهذا الرجل؟ فمجرد التفكير بأنني سوف أترك بيت أهلي لأذهب مع هذا الرجل الغريب كان يُصيبني بالقشعريرة،كنت مستعدة أن أبقى دون زواج طوال حياتي وأن أبقى بجانب أمي وإخوتي... فهذه هي أنا.. إنسانة تستمد سعادتها البسيطة من وجودها بقرب والدتها وإخوتها، مجرد التفكير بأنني سوف أتركهم لأعيش مع رجل غريب كان يُصيبني بالفزع، لكنني لم أتجرأ على البوح لوالدتي بمشاعري هذه، لأنني وببساطة كنت أخجل أن أقول لها بأنني خائفة، وأنني لا أريد أن أترك بيت أهلي، فصديقاتي تزوجن؛ أو سوف يتزوجن مثلي، وكنت أرغب بأن يكون لدي عائلة وأطفال.

منذ وفاة والدي وحلم والدتي أن أتزوج أنا وأختي، وأن تطمئن بأننا في كنف رجل يحافظ علينا، لم يكن يهمها إن كان فقيرًا أو غنيًا، كل ما كانت تريده هو أن يحافظ علينا وأن يكون متدينًا ومستقيمًا.. ولكن الرجل الذي كان سيُصبح زوجي كانت لديه مواصفات أخرى، فهو لديه سلطة ونفوذ؛ لوظيفته في الأمن... ولم تطلب منه ما يطلبه أهل أي فتاه من أثاث وجهاز، بل تركته يقدم ما يريد تقديمه؛ أو ما يستطيع تقديمه، ووقفتُ أنا بينهما خجلة وصامتة وتعيسة.

حين تغيب السعادة الحقيقية في علاقة ما؛ خصوصًا علاقة الزواج؛ تبحث المرأة عن سعادة ما في امتلاكها لشيء مادي... لم أحب ذلك الرجل، ولم أكن أدري هل سأحبه بعد الزواج أم لا؟ ولكنني كنت تعيسة لأنني لم أستطع أن أعوض شعوري بالتعاسة بشيء مادي... لقد أرادت أمي أن أتزوجه لأنه سيوفر لي الحماية والأمان، وأنا لم أكن أريد الحماية والأمان بل كنت أريد السعادة؛ ولو القليل منها؛ لم أشعر بأي سعادة خلال فترات وجودي معه قبل الزواج، كان حديثه جافًا ومُقتضبًا.. وبعد الزواج أدركت بأنه لم يكن يتحدث لأنه لم يكن يمتلك ما يكفي من المصطلحات العاطفية والإنسانية للتعبير عما يجول بنفسه.

في كل مرة كنت أجلس خلالها معه، كنت أرغب بأن أهرب لأي مكان بعيدًا عنه، ولم يكن لدي سبب محدد أو منطقي، كان شعور خانق يتملكني وكنت أتجاهله كل مرة.. فرغبة عميقة بداخلي تدفعني لطاعة أمي، وأنها تعرف مصلحتي أكثر مني...

وعندما أتذكر تلك اللحظات؛ أبكي، لأنني لم أنقاد لمشاعري الفطرية تلك، والتي أخبرتني منذ البداية بأنه كان يجب أن أهرب من هذا الرجل.

(٤)

هل السعادة شعورٌ يأتي من الأشخاص والأشياء من حولنا؟ أم هي شعورٌ داخلي تُشكّله ذواتنا بحسب ما توفر لدينا من حب أو إرضاء لرغبة ما؛ وقد تكون رغبة بالانتقام أو بالابتعاد؟ وهل الشعور بالسعادة يحتاج لشيء من الإبداع النفسي والروحاني؟

إذا كانت السعادة تأتي من الأشخاص والأشياء من حولنا، فأنا لم أجد سعادتي مع زوجي، ولا في بيت الزوجية الذي قدمه لي.. حتى ملابسي؛ كانت تلك الملابس التي اشترتها لي أمي...
وإذا كانت السعادة تُشكلها ذواتنا، فلابد لذواتنا أن تمتلك أدواتًا نفسية وفكرية تمكنها من نحت ذلك الشعور الشفاف والصلب بنفس الوقت، ولم أكن أمتلك تلك الأدوات بسني الصغيرة وبخبرتي القليلة في الحياة.. ولم يكن لدي الإبداع الكافي لجعل ما هو بشع يبدو أقل بشاعة؛ سواءً في نفسي أو في من حولي..

واكتشفتُ؛ وبعد مرور العديد من السنوات؛ أن أتعس ما قد يشعر به الإنسان هو ذلك الخواء الإبداعي تجاه كل ما يدور حوله وتجاه كل من يعيش معهم.. ألا يمتلك الوسيلة للفهم والتفكير وأخذ القرار اللازم بوقت ملائم.

لقد وقفتُ أمام كل الأحداث بحياتي عاجزة عن اتخاذ القرار،كنتُ كمركب خشبي قديم يطفو في مستنقع ضحل تحركه الرياح الثقيلة حيث شاءت... لقد تركت ذلك المركب، ولكن لا تزال الرياح الثقيلة تلفح روحي فيُصيبني الصقيع والارتجاف بأن أركب ذلك القارب من جديد في كابوس ما أو في حلم يقظة ما... ولا تزال بقايا من ذاتي تقبع في أعماق ذلك المستنقع.

نحن نحيا مع الآخرين، ويبدو أن كلاً منا يعيش حياة مستقلة عن الآخر؛ سواء في الزواج أو بحياة أي أسرة عادية؛ ولكننا ودون أن نشعر نترك بصمات عميقة في أرواح ونفوس من حولنا، نحن لا نحيا مستقلين رغم أن أجسادنا تتحرك بصورة مستقلة، وكلما طالت فترة الحياة معًا ازدادت البصمات عمقًا؛ وأحيانًا ألمًا ونزفًا... هناك بصمات صامتة ومختبئة تحت الجلد، وتلك البصمات من الصعب أن تتلاشى لأنها مُنغرسة هناك بعيدًا في الذات تستحضر ألم الإحباط والتدمير اليومي لكل تصرف أو كلمة اعتاد الآخرون على ترديدها اعتقادًا منهم بأنها لغة الحوار الوحيدة...
وهناك بصمات صاخبة أعلنت عن نفسها في العقول والصدور، وتلك البصمات هي بصمات الغضب التي تسلب الراحة النفسية لأشهر وسنوات ويقف أمامها الإنسان عاجزًا، فلا تطفو إلا حين تغرق الروح بها فتُعلن عن نفسها بالكلمات والنظرات

وتعابير الجسد، وحين يعجز الغضب عن انتشال النفس من ألمها ينسحب ليترك مكانه ليأسٍ لا ينتهي إلا بحضور الموت.

ونحن جميعًا أسرى لحضور شخص ما يعيش معنا.. وقد نكون أحرارًا بحضور شخص ما معنا.. قد يكون ذلك الآخر سبب التعاسة، وقد يكون سبب السعادة... وقد نكون نحن سبب التعاسة أو السعادة.

بنظرتي البسيطة إلى الحياة؛ لم أكن أدرك كل هذه المعاني العميقة والمؤلمة.. وحين أريد أن أتذكر وجهي البريء وابتسامتي الخجولة؛ أحتاج لوقت طويل كي أُنبش بأعماقي عن ذلك الوجه البريء الذي اختفى خلف صدأ سنين من التعاسة والألم... وحين أستطيع التقاطه يسبب لي ألمًا مضاعفًا فأدُسه من جديد بين أكوام الألم والذكريات المريرة.

هل يُعطي الزواج الحق لأحد الأطراف أن يدمر الآخر؟ هل عقد الزواج هو عقد يوقع بموجبه كل طرف على موافقته أن يكون ضحية أبدية إذا استلزم الأمر ذلك؟ ومن يحمي الطرف الضعيف حين يستشرس الطرف الآخر؟

هذه العلاقة المعقدة، والتي تصبح أحيانًا علاقة عبودية إذا غاب عنها الضمير واستعملها الطرف المُتجبر وسيلةً للتعبير عن حبه

للتسلط وإفراغ كل إحباطاته في الحياة بهذه العلاقة البسيطة والتي تتسع لتعقيدات عميقة.

لم تكن علاقتي مع زوجي علاقة زواج، بل كانت علاقة تفريغ لكل إحباطاته وكرهه للحياة ولكل إنسان يسير بطريقه... لم تكن علاقة محبة، بل علاقة ممارسة سلطة تبدأ بعقد الزواج وتنتهي عند استقراري بقبري...

وأنا بروحي المسالمة لم أدافع عن نفسي، لأنني وببساطة لا أحب الصراع لأجل أي شيء في الحياة، وكأنني أردت أن أعيش وأموت في الحياة بصمت دون أن يحمل عبء مشاكلي أي إنسان كان، حتى ولو كانت أمي.

(٥)

انتهت مراسم الزواج المتواضعة، وقبلتني أمي باكية.. لم أكن أدري هل تُقبلني لأنني سأغادر بيت أهلي، أم لقلقها الصامت على ابنتها الخجولة؟... ومن بين الدموع الصامتة قالت بصوت خافت:

- يا ابنتي، هذا زوجك فحافظي عليه، الطلاق مرفوض بعائلتنا فلا توجد امرأة مُطلقة بعائلتنا.. عليكِ بالصبر، مثلما صبرتُ مع والدك، ومهما كانت الظروف.

هززتُ رأسي، وحفرت تلك الكلمات القليلة بعقلي وقلبي.. ومددتُ يدي نحوه باستسلامٍ أخير، فكلمات أمي كانت المحطة الأخيرة حيث يجب أن أترجل وأترك عربتي القديمة وألحق به إلى أي مكان على هذه الأرض، وتحت أي شروط يريدها هو، كان يمكن أن يكون لي شروط ما حين كنت في بيت أهلي، لكنني الآن أخضع لشروطه هو، أو بالمعنى الأدق لرحمته.

بكت أمي لمفارقتي لبيت أهلي، أما أنا فبكيت خوفًا من المستقبل الآتي وأنا أسير بجانب هذا الرجل الغريب...لقد كان يبدو ضخمًا بالنسبة لحجمي الصغير والرقيق.. شيء ما بجسده الكبير كان يُشعرني بالخوف منه، وهو لم يحاول التودد لي؛ وكأنه كان في مهمة رسميه متعلقة بعمله... وبعد سنوات فهمت لماذا تصنع كل

ذلك التحفظ.. لقد كان يريد أن يضع حاجزًا بينه وبين أهلي، كي لا يتجرؤا ويطلبوا أشياءً متعلقة بالزواج والجهاز.

أمسكتُ يده الكبيرة بيدي النحيفة، وسار بي إلى بيت الزوجية... فتح الباب البني، وكنتُ آمل لآخر لحظة بأن أرى أثاثًا آخر وألوانًا أخرى، ولكنه لم يغير شيئًا من الأثاث القديم، ولا يزال اللون البني سيد المكان...

قادني نحو غرفة النوم التي أخبر والدتي بأنه سيشترى غرفة جديدة غيرها قبل موعد الزفاف.. أردتُ أن أشهق لهول المفاجأة، لقد كان نفس السرير القديم البني، ونفس الخزانة الضيقة القديمة... أردتُ أن أهرب من ذلك المكان منذ اللحظة الأولى، ولكن خوفي من كلام الناس ومن يده الضخمة التي لا تزال تُمسك بيدي جعلني أقف صامتة ومُرتجفة... لقد كانت أولى لحظات زواجي وسعادتي المُفترضة في غرفة أثاثها مُهترئ ويطوقها اللون البني من كل الأطراف والجهات.

وحين تأكدتُ من أنه غرق بنومه جلست في السرير القديم بجانبه أذرف الدموع الصامتة، وسمعت رنين الأساور الذهبية الرفيعة التي ألبسني إياها، نزعت إحداها لأتأمل نقوشها، واستغربت بأنني لم أر بحياتي أساور رفيعة كهذه الأساور، وكأنها خيوط ذهبية تلف

معصمي، أمسكتُ بها من طرفيها وضغطت عليها فإذا بها تنثني بين يدي ثم تنكسر.

تقوقعت حول نفسي بجانبه محاولة ألا أُصدر أي صوت كي لا يستيقظ ويرى دموعي الغزيرة... وما جدوى البكاء الآن ؟ ولماذا كل هذا الخوف وهذا الحزن؟

لأجل غرفة النوم، أم لأجل الأساور، أم لأجل حفلة زفافي الكئيبة، أم لأنني شعرت بالنفور منه منذ أن أمسك يدي؟

ولكي أُخفف حزني أخبرت نفسي بأن المال ليس كل شيء وإنه ربما يكون زوجًا طيبًا وأشعر بالسعادة معه وأنني بحاجة للوقت لأعتاد على علاقتي معه...

ولكن طيف رمادي كان يعلو كل أفكاري ويقول لي إنني مخطئة وأنني سوف أكتشف ليس عالم واحد من التعاسة بل عوالم من التعاسة مع هذا الرجل المستلقي بجانبي والذي أصبح بورقة صغيرة وبيضع أساور ذهبية وبمهر مقداره ليرة ذهبية زوجي ويملك أن يقرر مصيري.

مرت الليلة الأولى دون أن أستطيع النوم... لم أستطع أن أنهض وأذهب للنوم على الأريكة البنية القديمة في الصالون، ولم أكن أستطيع أن أنام وصوت أنفاسه التي يقطعها أحيانًا شخيره يملأ المكان... كان الظلام يحيط بي من كل ناحية وظلام نفسي أشد

حُلكة من ظـلام المكـان... أردت أن أهـرب وأذهـب لأمـي باكيـة وأتوسل إليها بأن لا أستمر بحياتي مع هذا الرجل ولكنني قبعـت صامته وعاجزة وخجلـة مـن مشـاعري، فكيـف سأتصـرف بهـذه الصورة بعد كل الذي دفعته أمي لأجل زواجي، وماذا سوف يقول الناس عني؟

وحين تمكن مني التعب والإرهاق غفـوت منكمشـة علـى نفسـي؛ حتى أنني لم أتجرأ على أن أسحب بعض من الغطاء الذي يتغطـى به...

ومنذ الليلة الأولى شعرت بالبرد يتسلل إلى جسدي الـذي أصـبح غريبًا عني.

(٦)

كان صباحًا كئيبًا امتزج باللون البني الذي توشح به كل جزء من المكان الذي يُسمى بيتي... وقفت في الصالة الصغيرة ونظرت إلى بيت المستقبل الذي سأقضي به حياة كاملة مع زوجي، لقد دخلت إليه في الأمس ليلاً بعد حفلة الزفاف، أما الآن وأنا أنظر إليه من خلال نور النهار أرى كم يبدو كئيبًا وكأنه يبكي.. لون الأثاث بني ولون الجدران أبيض باهت تعلوه بقع رمادية...

اتجهت نحو النافذة وفتحت الستائر القديمة لأرى أمامي شارعًا ضيقًا وبنايات رمادية اللون تحيط ببيتي من كل ناحية، فحتى أشعة الشمس لا ترغب بأن تدخل لهذا المكان... قطرات المطر كانت تتساقط وتزيد من برودة المكان... نظرتُ حولي باحثة عن مدفأة ولكنني لم أجد شيئًا يمكن أن يُخفف من برودة المكان، فاتجهت إلى المطبخ لأفتح الغاز وأجد بعض الدفء بقرب النار المشتعلة لتحضير الفطور.. المطبخ أشد حزنًا من أي مكان آخر في البيت، فهو يقع في زاوية ضيقة من البيت لا تزيد مساحته عن المترين أتحرك به بصعوبة... الغاز قديم والثلاجة أقدم منه، والنافذة الضيقة الوحيدة التي تُطل على العالم الخارجي مُقفلة ولم أستطيع أن أفتحها رغم كل محاولاتي.

وخلال تأملي لكل ما حولي وجدته يقف خلفي دون أن أستمع لوقع خطواته، وبصوت بارد قال لي:

- صباح الخير.

ارتعاشة خفيفة أصابتني لأنني تفاجأت بوجوده وتجاهل خوفي من حضوره.. سألته بصوت متردد:

- كيف أستطيع أن أفتح نافذة المطبخ؟

- ولماذا تريدين فتحها؟

- لتهوية المطبخ من حين لآخر.

وبصوت آمر أجابني دون أن ينظر لي:

- لا داعي لتهويته.. هذه النافذة تطل على جيران لا أحب أن أراهم، ولا أريدك أن تتحدثي معهم.

جلس ليتناول طعام الفطور بصمت، وعدت لسؤاله من جديد والخوف يملأ صدري:

- أريد أن أسألك.. أين المدفأة؟ فالمكان بارد جدًا.

كان يتناول طعامه بهدوء، وأجابني دون أن ينظر لي:

- لا توجد مدفأة... ألبسي ثياب دافئة وهذا سيكفي.

أردت أن أُجيب، ولكنه نهض من مكانه وكان مرتديًا ملابسه، وخلال دقائق غادر الشقة ليذهب إلى عمله... ومن خلال النافذة راقبته وهو يمشي في الشارع متجهًا نحو سيارته... خطواته وتعابير

وجهه كانت تريد أن تؤكد بكل ثانية بشعوره بالسلطة وأنه يعمل في الحكومة بجهاز مهم.. وكأنه لم يكن لديه ما يفخر به سوى هذه الصفة، ولا يريد أن يكون له صفة أخرى حتى بعلاقته معي، كان لابد أن أتذكر وخلال كل ساعات الليل والنهار بأن زوجي رجل يتمتع بسلطة منحته إياها وظيفته الهامة.

(٧)

استجمعت شجاعتي وقلت له بخجل:

- لقد أخبرتني خلال فترة الخطوبة أنك سوف تشتري غرفة نوم أخرى غير التي ننام عليها الآن.

نظر إليّ دون أن يرد، وشعرت بالانزعاج الشديد الذي اعترى ملامحه.. شعرت بالخوف وأردت أن أعتذر، ولكنه قال بعد قليل من الوقت:

- حسنًا، سوف أشتري غرفة نوم جديدة.

وخلال أسبوع تم تركيب غرفة النوم الجديدة، أخيرًا شيء من الفرح يدخل إلى قلبي الحزين...

كنتُ أنتظر لحظة خروجه للعمل لأتمدد على السرير الجديد وألمس الخشب الأبيض الناعم.. أخيرًا توجد لدي غرفة نوم جديدة وبيضاء مثل بقية صديقاتي اللواتي تزوجن، وفكرت بأنه ربما ليس سيئًا كما أعتقد، وأنه ربما الخوف منه بسبب فارق السن بيننا وبسبب طبيعة وظيفته هو الذي يجعلني أشعر بالنفور منه.

بعد أسبوعين طلب مني أن أذهب لزيارة والدتي وأنه سوف يمر لاصطحابي في نهاية اليوم... وبفرح غامر أخبرت والدتي بأنه اشترى غرفة نوم جديدة، فقالت بسعادة:

- لقد قلت لكِ إن بعض الرجال يتغيرون كثيرًا بعد الزواج.

وحين حل المساء حضر لاصطحابي للبيت.. جلست بجواره في السيارة، الصمت يبدو ثقيلاً، حتى الكلمات القليلة التي أرغب بأن أقولها له تتلاشى بمجرد أن أراه، وهو لا يُشجعني على التلفظ بها، فأقبع صامتة في كل مرة أجلس بها معه.

فتح باب الشقة، ودخلتُ إلى غرفة النوم، وما أن أشعلتُ النور؛ حتى أذهلتني المفاجأة، فغرفة النوم لم تعد موجودة والأثاث القديم عاد من جديد ليأخذ مكانه بكل ثقة... ودون تفكير توجهت نحو الصالة حيث يجلس، وسألته بصوت منفعل:

- أين غرفة النوم؟

- لقد بعتها.

- لماذا بعتها؟ إنها جزء من جهازي كعروس.

نظر لي بوجه عابس وغاضب:

- لقد انتهت فترة الخطبة والعرس، أنتِ الآن زوجتي، ويجب أن تحترمي قراراتي.

- ولكن.....

وبصوت مرتفع اهتز له المكان قال:

- لا يوجد لكن... هذا هو الموجود، وهذا ما أستطيع أن أقدمه لك... والآن اذهبي وحضري العشاء.

شعرتُ بدوار يشُدني إلى الأرض، وأردت أن أرتمي في أي مكان لأستطيع استيعاب ما يدور حولي، ولكن صوته المرتفع ونظراته الغاضبة جعلت الخوف يسيطر على أي مشاعر أخرى... فاتجهت بخطوات متعثرة نحو المطبخ لأُحضر له العشاء...

وعلى السرير القديم استلقيت أخيرًا قبل أن أقع على الأرض لصعوبة الموقف الذي مررت به.. نظرت إلى السرير البشع الذي عاد بعد غياب قصير وكأنه قدر يلاحقني.. توقفت عن التفكير لأنني وجدته بجانبي يريد التقرب مني.. كنتُ أريد أن أدفعه عني بكل قوتي البسيطة، ولكن تلك النظرات الجافة كانت تغرقني بخوف دفين، فأستسلم كضحية لا تملك أي وسيلة للدفاع عن نفسها، حتى تفكيري كان يُصيبه الشلل فأستسلم في كل مرة، ورغبتي بالموت تزداد عمقًا في كل مرة أشعر بأنفاسه تلفح وجهي.

أصبحتْ غرفة النوم البيضاء حلمًا بعيدًا لا أستطيع حتى الاحتفاظ به بأفكاري...

في تلك الليلة لم أستطيع أن أنام، وأدركت تمامًا بأن حياة صعبة تنتظرني بجانب هذا الرجل النائم بجواري... وعدت من جديد لأتقوقع حول جسدي وأشعر بالبرد ينخر عظامي، فأنهض مثل كل ليلة وألبس المزيد من الملابس، عسى أن يشعر جسدي بشيء من الدفء.

(٨)

لماذا تبدو الأرواح أحيانًا عنيدة لا تلين؟ تقابل أحدًا ما وتنفر منه، فيتدخل العقل ليعقل ذلك الإحساس الأول، ويدور الجدل اللانهائي بين الروح والعقل، بين المحبة والكره.

ولماذا منذ أن رأيت هذا الرجل نفرت منه؟ لم أكرهه، ولكنني رغبت وبكل قوتي أن أبتعد عنه، وها أنا الآن أُشاركه سريره وهذا القبو الذي يسميه بيتًا...

هل هي الروح التي تتحكم بمشاعرنا رغم أن العقل يطوع تصرفاتنا؟ فنبدو مسالمين ومطيعين لكل ما لا نطيق، نؤدي واجباتنا، ولكن أرواحنا تموت في كل دقيقة تشارك بها هذا الآخر حياته أو يشاركنا حياتنا.

إلى متى سأؤدي واجبي كزوجة وامرأة مع هذا الغريب الذي أصبح أقرب لي من والدتي؟ شيءٌ ما بهذا الرجل يُشعرني بالنفور، ويشتد نفوري منه حين يقترب مني، ولكنني اعتدت ورُبيت على إتمام واجباتي، ويُنقذني من تلك المواقف الصعبة أن أُغلق عيناي إلى أن ينتشلني ابتعاده عني من غرقي المتواصل بالنفور والفراغ.

وشيء ما به يُشعرني بالخوف، ففي الأوقات القليلة التي تأملت بها وجهه الجاف والتقت نظراتنا؛ خفضت نظراتي على الفور، كان يعتقد بأنني أفعل ذلك خجلاً منه، ولكنه كان خوفًا منه، فعيناه كانتا تُخبراني بأشياء كثيرة عن أعماقه وعن رحلة المستقبل القادمة، رسالة صامتة تبثها عيناه إلى روحي بصمت ولكن بثبات، إنها رسالة القسوة وجفاف الروح حتى بأبسط المشاعر والكلمات.

رغم مرور أيام عديدة على وجودي بهذا المنزل، إلا أنني لا أزال أشعر بأنني دخلت إلى عرين أسد ما لم يُكشر بعد عن أنيابه، ولكنها هناك تحت الجلد وخلف صفحة العيون الخالية من البريق. أي حياة عاشها هذا الرجل ليبدو بهذه القسوة وبهذا الجفاف؟ أي ألم طغى على كل حواسه حتى شل كل مشاعره؟ وأي حرمان عاطفي عاناه لتبدو مصطلحات الحب لديه شحيحة بل ومعدومة؟

تذكرت وجه والدته الجاف، وكلماتها القليلة الخشنة، فشعور دفين أخبرني أن تلك المرأة التي أتت لخطبتي لابنها لم تكن امرأة عادية، أو بالأحرى لم تكن أمًّا ككل الأمهات، بل كانت مدرسة لمشاعر أخرى لا أعرف عنها شيئًا، وكانت المرجع الأول لهذا الرجل الذي أصبح زوجي... اعترتني القشعريرة من جديد فأنا أدرك بأني أمام شخصيات صعبة جدًا، والأسوأ هو أنني أجهل كيفية التعامل معها، أو لا أدري هل يوجد طريقة ما للتعامل معها.

(٩)

في كل يوم كنت أقمع مشاعر الحزن والإحباط والكآبة، وما أن يخرج من البيت حتى أنظر حولي إلى هذا المكان الذي هو بيتي والذي لا يحتوي على أي ألوان سوى اللون البني.. وبتفكير بسيط أخذت النقود القليلة التي وضعتها أمي بيدي في ليلة زفافي، وفتحت الباب، لأخرج لأول مرة من قبوي.

سرتُ بخطوات بطيئة عبر المحلات التجارية كأنني أرى العالم الخارجي لأول مرة، وتأملت أدوات الزينة المعروضة للنساء، ولم أشعر بأنني واحدة منهن، لمست الأساور والأقراط اللامعة، ودموع صغيرة التمعت بعينيّ، فأنا ورغم كل ما يدور حولي لا أزال أحمل شعور أي امرأة بحاجتها للحب وأن تكون جميلة لأجل نفسها ولأجل زوجها، ولكن مجرد التفكير بملامحه يجعلني أرفض أن أكون هذه المرأة التي أرغب بأن أكونها.. غادرت محل الزينة وتوجهت إلى محل آخر.

وقفتُ في وسط محل زينة المنازل ورأيت الألوان تتراقص أمامي، وبشوق لمست الأوراق البلاستيكية الخضراء وشراشف الأسرة الحمراء وأغطية الطاولات الممتلئة بأشكال من الزهور.. لم أكن

أتصور بأي لحظة في حياتي بأنني سأشتاق للألوان وأنها ستُصبح حاجة أساسية أسعى إليها، ولشدة غرقي في اللون البني في بيتي كنت أريد أن ألتهم هذه الألوان بعيوني وأن ألمسها، وأنا أقف هناك دون أن أدري كم مرّ من الوقت.. صوت لطيف أخرجني من أفكاري المتلاحقة:

- سيدتي، هل أستطيع مساعدتك؟ هل أنتِ على ما يرام؟

لقد كان صوت أحد العاملين في المحل... وبارتباك أجبته:

- أجل.. أجل..

حملتُ كل الأشياء الملونة التي أردتُ أن أشتريها والتي ستُنقذني من اللون البني، وخرجت مسرعة إلى البيت، لقد حان موعد عودته ولم أشعر بمضي الوقت.. وبخطوات خائفة دخلت إلى البيت لأجده جالسًا بانتظاري...

- أين كنتِ؟

- كنتُ... كنتُ في السوق.

- هل أخذتِ أذني للذهاب إلى السوق؟

- لا.. و.. ولكن..

وبصوت مرتفع وغاضب قاطعني قائلاً:

- حتى أنكِ لا تُتقنين الكلام مثلما لا تُتقنين أشياء أخرى... ممنوع الخروج من البيت دون إذني هل فهمتِ؟.. وما هذا الذي تحملينه؟

- إنها... إنها أشياء للبيت.

نهض وأخذ الأكياس من يدي، وأفرغها على الأرض، وسألني بشك:

- من أين حصلتِ على النقود؟

- لقد كانت النقود التي أعطتني إياها أمي ليلة زفافي.

- ولماذا لم تُخبريني بها؟... سوف تُعيدين هذه الأشياء وتعطيني النقود فهي ليست لك لوحدك.

- ماذا؟ ولكنني لا أستطيع إرجاعها.

- سوف تعودين فورًا وتعيدينها، وإذا رفض صاحب المحل سوف أسبب له مشكلة، وأنتِ تعرفين أنني أستطيع فعل ذلك؟

- ولكنني متعبة الآن.

- اذهبي فورًا، وإلا.....

دخلت إلى المحل بخطوات مرتعشة وعيون باكية.. نظر إليّ صاحب المحل ولم يدع أحد العاملين يتحدث معي، بل ناداني وطلب مني الجلوس... وبيد مرتجفة ناولته الأكياس وقلت له بصوت يكاد يختنق بصدري:

- أرجوك أعد لي النقود... فزوجي.....

نادى على إحدى العاملين وطلب منه إحضار كأس من الماء لي، وقال بصوتٍ هادئ:

- لا عليكِ يا ابنتي... اهدئي ولا تفكري في الأغراض، وسوف يقوم موظفي بإعادتك بسيارتي إلى بيتك، فأنتِ بحالة صعبة.
لم أستطع أن أتوقف عن البكاء أمام عطف ذلك الرجل الغريب، أردت أن أُلقى برأسي على كتفه، ولكني أعرف بأن هذا مستحيل، فاكتفيت بترك الدموع تُعبر عن آلامي... تابع قائلاً:
- أما عن الأغراض.. سوف أُعيد لكِ النقود، ولن أسترجع الأغراض.. اعتبريها هدية لكِ من المحل.
- لا... لا... لا أستطيع أن أقبلها، أخاف أن يضربني.
- أعتقد أنه سوف يضربك في كل الأحوال، فرجل كزوجك لا يحتاج لسبب ما لضرب زوجته... أرجوكِ اقبليها وأخبريه أنني قريبٌ لكِ ولهذا أعطيتك هذه الأشياء، وإذا احتجتِ لأي شيء تعالي دائمًا إلى هنا... اسمي "أبو سمير".
حاولتُ أن أقول شيئًا لأشكره، لكن الكلمات تجمدت في صدري، وكانت دموعي هي كلماتي وشكري له... وبخجل وضع يده على كتفي وابتسم.

نقلني السائق إلى بيتي والخوف ينهشني... فكيف سيتصرف حين أعود؟.. أردت أن أقول للسائق أن يأخذني لبيت أهلي، ولكن وجه أمي وكلماتها جعلتني أطرد تلك الفكرة من رأسي، وقبعتُ في السيارة مرتجفة وخائفة، ولكنني متمسكة بالأشياء التي تحمل الألوان إلى حياتي.

نظر إليّ بغضب ونهض يريد أن يضربني، وقبل أن تمتد يده إلى النقود التي وضعتها على الطاولة ، نظر إلى النقود وعاد للجلوس ونظر إليّ بريبة:

- وكيف أعدتِ هذه الأغراض؟

- صاحب المحل قريبٌ لنا من بعيد، لذلك أعطاني إياها كهدية حين عرف بقرابتنا البعيدة.

وبنظرات حانقة قال:

- ما اسم هذا المحل؟

لم أتوقع سؤاله، فتمالكت نفسي وأخبرته بأول اسم راودني:

- اسمه... اسمه "محل الأنوار".

- حسنًا.. اذهبي لتحضير الطعام.. وأُحذرك من الخروج من البيت دون إذني حتى ولو لزيارة للجيران... هل فهمتِ؟

ما أن تسلل النور عبر النافذة الضيق حتى توضأت لأصلي وأعدّ الفطور... جلس ليأكل ونظر إليّ باستغراب قائلاً بعد صمت قصير:

- ما هذا النشاط؟

- أبدًا، ولكن توجد أعمال كثيرة لدي اليوم في البيت.

عاد لصمته، تناول طعامه مسرعًا، وخرج لعمله... تنفستُ الصعداء وأسرعتُ لوضع بعض الألوان في الشقة الباهتة.. ورود

حمراء وأوراق خضراء وأغطية بجميع الألوان وشراشف صفراء ومنقوشة بألوان برتقالية وخضراء...كنتُ أريد أن تنتشلني الألوان من اللون البني الذي غرقت به حياتي، وكأن تلك الألوان مركب متعدد الأشرعة يُبحر عبر غروب كئيب وخاف أن يستمر إبحاره إلى أن يحل الظلام فلا أرى ألواني الجميلة، ولا أعرف أين سيقودني مركبي الشراعي.

وحين انتهيتُ من رسم لوحتي البسيطة، ابتسمتُ لأول مرة منذ أن دخلت لهذا المكان، لقد أنقذتني الألوان من يوم آخر من الحزن والكآبة.

(١٠)

ولأنني فتاة عادية، ورغبتُ دومًا أن أكون زوجة مثل كل نساء الأرض، فمنذ أن أدركتُ ما معنى كوني امرأة بدأتُ أحلم بشكل المطبخ الذي سيكون في بيتي عندما أتزوج، ولطالما رسمت له أشكالاً وألوانا، وكلما شاهدتُ صورًا للمطابخ الحديثة على التلفاز كلما تجددت رغبتي بأن يكون لي مطبخ مثله في المستقبل برفوفه الواسعة وخزاناته اللامعة وأدراجه سهلة الفتح والإغلاق، وأجمل ما في المطبخ الذي امتلكته بخيالي هو تلك الأضواء القوية التي تُنير الخزائن الزجاجية... وأقف في مطبخي الآن، وبالكاد أُسميه مطبخ، فرفوفه تكاد تقع لشدة قِدمها، والغاز أسود وقديم وقذر، ويوجد به ثلاث عيون؛ ولكن عين واحدة تشتعل، ومهما حاولت تنظيفه لا يزول عنه ذلك اللون الأسود... والطاولة البلاستيكية التي بالكاد تحمل بعض الصحون... أقف بكل يوم وانظر لمطبخي وأقارنه بالصورة التي وضعتها على جدار خيالي لمطبخ المستقبل، لا أستطيع انتزاعها، ولا أستطيع تقبل مطبخي هذا أطبخ بصعوبة لأن أدوات كثيرة غير موجودة، وفي كل يوم أُخبر زوجي بأنني أحتاج لبعض الأشياء للمطبخ، فيهز رأسه، ويعود

فارغ اليدين... إلى أن أتى في يومٍ ما حاملاً كيسًا أسود وضعه على الطاولة البلاستيكية وقال بلهجة واثقة:

- هاهي الأغراض التي طلبتها.

فتحت الكيس الأسود وشهقت حين رأيت الأشياء التي أحضرها، لقد كانت طنجرة قديمة صدأة، ومصفاة مُهترئة، وبعض الملاعق القذرة. نظرتُ إليه بدهشة وقلت له دون تفكير:

- ما هذا؟ هذه نفاية وليست أغراضًا.

اقترب مني غاضبًا، وقبل أن أُدرك ما يحصل شعرت بصفعة عنيفة على وجهي، وكانت تلك المرة الأولى التي يضربني بها، وقال صارخًا:

- هذا هو الموجود، وأريد أن تنظفي هذه الأغراض، وأن تستعمليها... هل تفهمين؟

مسحتُ الدماء التي نزفت من شفتي واختلطتْ بدموعي، وهززتُ رأسي بالموافقة، فعاد ليقول:

- أريد أن أسمع كلمة حاضر.

- حاضر... حاضر.

لم أنم طوال الليل وأنا أرى مركبي الشراعي يغوص في الظلام الذي بدأ يحل على شواطئ الخوف والرهبة من كل حركة وكلمة يحملها المستقبل القاتم لي... ذلك الذي ينام بجواري ويحصل على

كل حقوقه الزوجية يحرمني من أبسط حقوقي وهو الشعور بالأمان بجانبه... أخاف منه، حتى أنني أخاف من تقلبه في فراشه وفي كل دقيقة أخاف أن يستيقظ، ويستيقظ معه الغضب والحقد القابعين في صدره، فأمكث بجانبه دون حراك كي يبقى ذلك الجسد الضخم صامتًا.

(١١)

قبل أن أطلب منه أي شيء يتعلق بالبيت لابد أن أفكر مئات المرات ولأيام طويلة متى يجب أن أطلب منه وكيف وهل سيقبل؟ وكل ما أطلبه يتعلق بالمنزل، فأنا لا وجود لرغباتي ولا أزال أرتدي الملابس التي حملتها معي من بيت أهلي... توجد أشياء كثيرة يجب أن أطالبه بها ومنها الرحمة والمحبة، والقليل؛ وليس الكثير؛ من الدفء الإنساني، ولكني لا أستطيع أن أُطالبه بأي من هذه المشاعر وهو ما يجعلني دائمًا في حيرة حول طبيعتنا البشرية، نحن نجد أنه من السهل أن نطلب كل ما هو مادي، وبل نفتعل الشجار إذا استلزم الأمر للحصول على كل ما هو مادي، وندرك تمامًا بأن هذا الشيء المادي يُلبي سعادة مؤقتة تتلاشى بعد حين، لكننا نخجل ونرفض أن نطالب بحقوقنا المعنوية؛ أن نطالب بشيء من الحب والاحترام، رغم أنها مشاعر مجانية وهي التي تجلب السعادة الحقيقية... فلماذا لا أستطيع أن أقف بوجهه وأقول له بأنني بحاجة لهذه المشاعر؟ ولماذا أستطيع أن أقول له بأنني بحاجة لمقلاة وغرفة نوم أو لعدد من الملاعق؟ هل لأنني سوف أُضعف نفسي بطلب هذه المشاعر بلسان صريح؟ أم لأننا تعلمنا منذ الصغر بأن إخفاء

المشاعر في صخرة ما من الروح هو النجاح في الحياة ؟ ورغم أن الزمن والتجارب تُثبت خطأ هذه التربية إلا أننا نستمر بهذا الخطأ إلى أن تتحول حيواتنا إلى صحارى من الوحدة، ثم إلى غضب صامت لا يسمح لأي نوع من السعادة بتهدئته...
ولكن هل أستطيع أن أطلب من زوج مثل زوجي مثل هذه المشاعر؟ وإن طلبتها هل يستطيع فعلاً أن يمنحني إياها؟
المشكلة ليست بأنه لا يقدمها لي، ولكن بأنه قد لا يستطيع فعلاً أن يقدمها لي.

ومن جديد أضطر للوقوف أمامه لأطلب منه سجادة صغيرة لمدخل البيت، ومن جديد يهز رأسه بامتعاض، وبعد فترة من الزمن يعود بشيء ما يُشبه السجادة؛ شيء قديم ووسخ، وأعرف بأنه وجدها في إحدى النفايات... وأضطر من جديد لغسلها، وأن يرى بأنني استعملتها...
واتخذتُ قرارًا نهائيًا بالا أطلب منه شيئًا آخر، وإلا تحول هذا القبو البني إلى مكب نفايات.

وبعد أن أدركتُ بأنني لن أستطيع تغيير هذه الحياة وأنها قدري، لم أعد أقاوم، أصبحت ألبي له كل رغباته بصمت ودون نقاش ولا أطلب منه شيئًا، حتى إذا نقُص الطعام في البيت لا أطلبه، وحين يسألني لماذا لم أخبره بعدم وجود طعام، أصمت، وينظر لي بغضب

يريد أن يضربني، ولكن صمتي كان يُنقذني من رغبته القوية بضربي.

كنتُ أشعر بأنني جثة تحيا، وأن روحي غادرت هذا القبو ولا أدري أين رحلت، وكانت هذه طريقتي الوحيدة لأستطيع أن أستمر بالحياة، والأغرب من ذلك هو أنه كان راضٍ عن سلوكي هذا، لقد كان أكثر هدوءًا... وفهمت بأنه كان يريد زوجة تحيا معه ولكنها غير موجودة بحياته، يأخذ منها كل احتياجاته، وحين يشبع لابد أن تختفي عن ناظريه، وألا يسمع صوتها مطالبة بشيء ما، أو بشعورٍ ما.

لم يكن يوجد في البيت جهاز تلفاز، وحين طلبته منه في السابق أجابني:

- توجد الآن محطات سيئة تُحرض الناس على النظام وتنشر الفوضى بكل مكان.. ثم ما حاجتك أنتِ للتلفاز؟ يوجد لديك الكثير من العمل في البيت.

وبعد مدة فهمت لماذا لا يريد التلفاز، فهو يعتقد بأنه غالي الثمن ولأنه لا يأتي للبيت إلا في المساء لينام...

ومن جديد وقفتُ أمامه ونطقت بصعوبة ببعض الكلمات:

- هل... هل تقبل أن يشتري لي أهلي جهاز تلفاز؟

- ماذا؟ هل جُننتِ؟ وماذا سيقولون عني؟... هذا مرفوض، وإن سمعتك تقولين هذا مرة أخرى لن يحصل أمر جيد.

وهكذا عدت من جديد إلى قفصي أدور به ولا أجد منفذًا ولو عبر شاشة صغيرة تنقلني لعالم آخر ولو لدقائق أو لساعات.. عالم أستطيع أن أوهم نفسي بأنني قد أحياه في يومٍ ما.. عالم من الصور والكلمات الجميلة لأماكن وأشخاص لا أعرفهم ولكن يقولون لي في كل يوم بأنهم يعرفونني ويرحبون بي...
لقد حُكم عليّ بأن أكون سجينة في بيتي ونفسي وجسدي، وضعفي وخوفي شاركاه في تنفيذ جريمته.

(١٢)

منذ أن تزوجت؛ زارتني والدتي لمرة واحدة فقط مع أخي الصغير، نظرتْ حولها وسألتني:

- لماذا لم يغير شيء من الأثاث كما وعدنا؟

نظرتُ إليها بصمت، وقلت بصعوبة:

- لأنه لم يكن ينوي فعلاً أن يغير شيئا.

- وغرفة النوم؟

ابتسمتُ، ثم غرقت بموجة من الضحك.. نظرت أمي لي بدهشة، ثم أجبتها:

- لقد اشترى غرفة نوم لعدة أيام ثم أعادها إلى المحل، أي لا تستطيعي أن تقولي له أنه لم يشترِ غرفة نوم.

عاد الصمت من جديد... نظرتُ إلى والدتي وقلتُ بتردد:

- أمي.. هل تقبلين أن أطلب الطلاق منه؟

- ماذا؟؟!! الطلاق، ولماذا؟

- لا أحبه.. بل لا أطيقه... ثم إنه بخيل، ويضربني أحيانًا.. أخاف منه كثيرًا.

وقبل أن تُجيب أمي، قال أخي:

- أجل..أجل.. طلقيه، فأنا لا أحبه أيضًا.

قالت أمي بغضب:

- اخرس أنت... أي طلاق هذا ولم يمض على زواجك سوى بضع أشهر... ماذا سوف يقول الناس؟ ثم إنه يحضر ما يلزم إلى البيت.

- يحضر الطعام فقط لأجل نفسه.. فهو لم يشترِ لي أي قطعة ملابس منذ زواجنا، ويُحضر لي أغراض البيت من النفايات التي في الطريق.. ويضربني كلما اعترضت على شيء ما... أحيانًا أشعر بأنه قد يقتلني في يومٍ ما.

- لقد أصبح زوجك، ولا أريد أن أسمع كلمة الطلاق... ثم هل نسيتِ أنه لن يقبل بأن يُطلقك، بل قد يؤذيك ويؤذينا، فأنتِ تعرفين بأن له سلطة بأن يفعل ما يريد في هذا البلد... اصمتي وسوف يتغير إلى الأحسن إن شاء الله... والآن يجب أن نذهب.

وحين عاد من عمله أخبرته بأن أمي كانت في زيارتنا.. بدا منزعجًا ثم قال بعد دقائق من الصمت:

- اسمعي.. لا أحب الزيارات العائلية، وأرجو أن تجعلي والدتك تفهم هذا.

وقفت مذهولة أمامه، ثم سألته بصوت مخنوق:

- ولكنها أمي.

- ماذا يعني أمك؟ أغلب المشاكل بين الأزواج تأتي من الأمهات.

- ولكنك منعتني من زيارتها، والآن لا تريدها أن تأتي لزيارتي... وهي الوحيدة التي زارتني منذ زواجنا.

- أجل.. وهذا أفضل... لقد تزوجتك لخدمتي، ولتبقي في البيت، ولا أريد أي زيارات من أحد.

من جديد شعرت بالدوار وألقيت بنفسي على السرير لأغرق ببكاء صامت... وعاد صوته يصرخ من جديد في البيت:

- أين أنتِ؟ هيا أعدي لي كأس من الشاي.

(١٣)

كلما دخلت إلى المطبخ واجهتني النافذة الخشبية المُغلقة، شيء ما بها يُثير فضولي، فهي أُغلقت بدق عدد من المسامير على أطرافها، أي أنها كانت مفتوحة وتُطل على شيء ما، ولكن ما هو هذا الشيء، أو من هم الأشخاص الذين تطل عليهم... انتابتني رغبة شديدة بفتح هذه النافذة والنظر لما يوجد خلفها ثم إعادة إغلاقها من جديد.

وخلال أيام كنت قد استطعت أن أفتح النافذة، وحرصتُ على إبقاء المسامير لإعادتها من جديد بعد أن أرى ما خلف هذه النافذة. انتظرتُ بفارغ الصبر خروجه من البيت، وركضت باتجاه المطبخ لأفتح النافذة الصغيرة، وتفاجأت بأنها تُطل على نافذة بيت آخر... كانت نافذتهم مفتوحة، ورأيت امرأة تنظف الصالة في البيت الآخر.. وفجأة ألتفتت ناحيتي واعترتها مفاجأة كبيرة... اقتربتْ من النافذة ونظرت لي باستغراب.. ثم قالت:

- كيف فتحتِ هذه النافذة فهي مُغلقة منذ سنوات؟ منذ.....

- منذ ماذا؟

- لا شيء.. لا شيء... من أنتِ؟ هل أنتِ زوجته؟

- أجل أنا زوجته... هل تعرفين زوجي؟
- ومن لا يعرف زوجك؟.. الجميع يعرفه في الحي.
- ما اسمك؟
- اسمي نرجس... وأنتِ؟
- اسمي سهاد.

كانت تنظر إليّ باستغراب، وكلما تحدثت عن زوجي صمتتْ وعلت الريبة وجهها وكأنها تخاف أن تتحدث عنه... وبعد دقائق من الحديث معًا قلتُ لها:

- اسمعي يا نرجس.. زوجي لا يعلم بأنني فتحت هذه النافذة، وأنا لا أستطيع أن أخرج من البيت دون إذنه، وأشعر بالضجر طوال الوقت.. هل أستطيع الحديث معكِ من وقت لآخر؟

نظرت لي بقلق وقالت:

- بالطبع... ولكن أريد أن أسألك: هل أنتِ سعيدة معه؟

صمتُ قل أن أُجيب.. هل أستطيع أن أثق بها؟.. ولكن حاجتي للحديث مع أحد ما دفعتني للإجابة الصادقة:

- أنا تعيسة معه، ولكن لا أستطيع أن أفعل شيئا.
- لقد كنت أتوقع هذه الإجابة.. لقد خطب فتاة في الحي وتم رفضه فالجميع يعرفون بأنه إنسان قاسٍ ومعقد... عمومًا، اعتبري أن لكِ أختًا وصديقة.

أغلقتُ النافذة وأعدتُ المسامير بطريقة تُمكنني من فتح النافذة بسهولة متى أردتُ.

ذلك الوقت الذي قضيته بالحديث مع نرجس أخرجني من حزني وكآبتي، وشعرتُ ولأول مرة بأنني يمكن أن أحيا ولو شبه حياة طبيعية؛ إن استطعت الحديث مع نرجس كل يوم.

(١٤)

في كل يوم كان يراودني حلم بأنني قد أخرج من هذا البيت وأحصل على الطلاق، رغم إدراكي الأكيد برفض أمي لفكرة الطلاق، وأنها لن تحتمل وجودي في بيتها كمطلقة... ولكن ذلك الحلم رغم كونه خياليًا وبعيدًا عن الواقع كان يجعلني أشعر بشيء من الحرية، وأنه لا يزال لدي أمل بشيء من السعادة... إلى أن بدأت حياة أخرى تدب في جسدي.. عندما عرفت بأنني حامل، لم أفرح، لأنني وبهذه اللحظة فقدت حلمي الأخير بشيء من السعادة، كأن هذه الروح الصغيرة القادمة ربطتني بهذا الرجل الذي أكرهه إلى الأبد... لم أكن أريد هذا الطفل لأنني لم أريد أن أفقد آخر أمل بحلم ما... أضع يدي على بطني وأشعر بأنني أصبحت أسيرة هذا البيت، وأسيرة هذا الزوج، وأسيرة هذا الطفل القادم.

وكلما خرج من البيت حاولت بشتى الطرق أن أتخلص من هذا الذي ببطني؛ من هذا الجزء من جسدي الذي يشاركني به زوجي إلى الأبد... وكلما تذكرت سعادته حين علم بأنني حامل؛ كلما أردت وبقوة أكبر أن أتخلص منه.

وقفت أمام النافذة أنتظر حضور نرجس... قالت بصوت مرتفع:

- لماذا لا تأتين لشرب القهوة عندي؟

- لا أستطيع، فقد أمرني بألا أتحدث مع أحد من الجيران.

- ماذا؟ أنا أعرف أنه معقد، ولكن لهذا الحد؟

- حتى إنه يرفض أن أزور أمي أو أن تأتي لزيارتي.. أحيانًا أرغب بأن.....

اقتربتْ من النافذة وقالت:

- لا تُكملي كلامك... من حقك طلب الطلاق.. أنتِ لست مضطرة للاستمرار بهذا الحياة.

- أمي دفعتني لهذا الزواج وترفض فكرة الطلاق.. ولا يوجد لدي شهادة جامعية لكي أعمل... ثم إنني.....

- ماذا أيضًا؟

- أنا حامل.

- أنتِ مجنونة بالفعل...كيف تحملين من هذا الرجل وأنتِ تفكرين بالطلاق طوال الوقت؟

- لم أكن أفكر بالطلاق، ولكن أحلم به.. والآن حتى الحلم قد مات، أريد أن أتخلص من هذا الطفل بأي وسيلة ...أشعر بأنني أحمل جزءًا من جسده وروحه بأعماقي.

- تريدين أن تقتلي ابنك؟.. هذا حرام.. ربما قد يتغير زوجك بعد أن يولد الطفل، فكثير من الرجال يصبحون أكثر كرمًا وحنانًا بعد

أن يصبحوا آباء... اسمعي.. لا أحد في الحي يحب زوجك، ولقد تسبب بإيذاء أخي وإدخاله إلى السجن رغم أن والدتي كانت تعطف عليه وتُرسل له الغذاء من حين لآخر قبل الزواج بكِ... ولهذا أغلق النافذة التي تطل على بيتنا خجلاً من أمي..

- هل طلبك للزواج؟

صمتتْ قليلاً وأجابت:

- أجل.. وحين رفض أهلي؛ انتقم من أخي وتسبب بسجنه لعدة شهور.

- وأنتِ.. هل كنت تريدين الزواج به؟

ضحكتْ وأجابت:

- سوف أعترف لكِ... في بداية الأمر، وحين سكن بجانبنا، كان يُعجبني، فقد كنت أحب موظفي الدولة أصحاب السلطة؛ حتى ولو كانت سلطة صغيرة، خصوصًا إذا كانوا يرتدون زي الجيش أو الشرطة، ولكنه ولحسن الحظ لم يكن يرتدي زيًا عسكريًا... ولكنني ومع الوقت بدأت أنفر منه ومن طريقته بالحديث مع الجيران وتصرفاته العدائية، حتى أنني أصبحت أخاف منه.

- هل تعتقدين بأنه كان يحبك؟

- أنتِ تسألين أسئلة غريبة، كأنك لا تتحدثين عن زوجك.

- لا أشعر بأنه زوجي، ولكنه رجل فُرض عليّ الحياة معه بقرار من والدتي.. لا أشعر بالغيرة تجاهه.. أسألك بدافع الفضول فقط.

- أجل لقد كان يُحبني، ولكنني لم أُبادله مشاعره تلك.
- كيف عرفتِ بأنه يحبك؟
- لقد أخبرني بنفسه؛ عبر هذه النافذة، وأخبرته بنفس الوقت بأنني لا أبادله المشاعر، فأغلق هذه النافذة منذ تلك اللحظة إلى أن رأيت وجهك يُطل منها.
- أريد التخلص من الطفل الذي ببطني.
- هذا خطر عليكِ، فأنت في الشهر الثالث.. ثم إن هذا حرام.. ولن تعرفي ما هو تصرفه إذا عرف بأنك تخلصت من ابنه... رغم أنني لا أحبه، ولكن امنحيه فرصة، قد يتحسن.

أغلقتُ النافذة من جديد لأعود لعالمي الصامت.. وأتحسس هذا الطفل بأحشائي، وشعور رقيق بدأ يتسلل لروحي.. هناك طرف ثالث سوف يشاركني حياتي، وهو طرف لا أستطيع أن أكرهه .. إنه ابني أو ابنتي.. مجرد التفكير بأنه سوف يكون هناك صوت آخر في البيت جعل وحدتي تبدو أقل ثقلاً.. فتحسست بطني من جديد، ولأول مرة أتخذ قرارًا بأن أحتفظ بهذا الطفل، ربما يكون مُنقذي من وحدتي ومعاناتي، ربما يستطيع أن يحرك مشاعر لدى زوجي؛ ماتت منذ زمن بعيد.. كان لابد أن أمنح فرصة لهذا الطفل القادم للحياة، وفرصة لزوجي؛ كما نصحتني نرجس.

(١٥)

تمر الساعات بطيئة وثقيلة، مُشبعة بالقلق والخوف من عودته للمنزل، نافذتي الوحيدة للحياة هي نرجس التي تُخبرني عن كل ما تشاهده في التلفاز، وعن ما يدور من أحداث في الحي الذي أعيش به، والذي لا أعرف أحد به سوى نرجس.. أصبحت أعرف أسماء الجارات وقصصهن دون أن أراهن، وحين أجلس وحيدة أرسم لكل جارة من الجارات وجهًا ومظهرًا يتطابق مع ما تخبرني به نرجس، ويختلط خيالي الخصب بفضول كبير لرؤية هذه الشخصيات التي أعرف تفاصيل حياتها، ولكنني لا أعرف شيئًا عن تفاصيل الوجوه والأجساد... وأتساءل، لماذا يتملكنا الفضول حين نعرف شيء ما عن شخص مجهول أن نرى هذا الشخص ونُدقق بملامحه الجسدية؟.. هل تُصبح معرفتنا به أعمق حين تراه عيوننا، أم أننا ومن خلال نظرات العيون نسبر أعماق ذلك الآخر وكأن ملامحه وحركات جسده ليست إلا قاموسًا مفتوحًا لما يكمن بداخل تلك النفس الدفينة،ونحن نحتاج لأدوات تُمكننا من معرفة حقيقة تلك الذات حتى ولو لم تكن لها أهمية كبيرة بحياتنا، ذلك الفضول الإنساني الذي لا يفتر ولا يتوقف عن البحث بأعماق

الآخرين، وكأننا خلال عملية البحث هذه نشعر بتدفق جديد في أرواحنا، فنرغب ونحتاج لمعرفة الآخر ورؤيته والحديث معه وعنه.

في الأيام التي لا أستطيع خلالها الحديث مع نرجس أشعر بالضيق والاختناق، طرقاتي الخفيفة على النافذة التي تفصلنا تُشبه طرقات قلبي الوحيد، والذي يتلهف لأي نبض للحياة عدا عن نبض الخوف والوحدة.. وحين أسمع طرقات نرجس في الجهة المقابلة أعرف بأنها موجودة، وأنها تريد الحديث معي، فتختلف نبضات قلبي لتتحول لرقصات خفيفة تحتفل بعودة الحياة القصيرة لعروقي الباردة.

قالت لي بصوت مُتحمس:

- اسمعي، سوف أدعو الجارات اليوم لشرب القهوة في بيتي، هل تأتين؟

- ماذا؟ أخرج من البيت دون علمه؟ ثم إنه قد منعني من زيارة الجيران، أو أن يحضروا لزيارتي، أو حتى الحديث معهم.

- سوف تكون الدعوة في الساعة العاشرة صباحًا، وسوف يكون زوجك في العمل، لن يعرف بذلك.. تعالي... ثم إلى متى سوف تبقين سجينة هذا البيت؟

- لا أدري إلى متى... كنت أفكر بذلك سابقًا، أما بعد حملي منه، لم يعد هناك مجال للتفكير... يبدو أنه قدري، ولا بد أن أقبل به، كما أخبرتني أمي.

صمتُ قليلاً، ورغبة جارفة بأعماقي تدفعني للحضور ورؤية الجارات، وأن أقارن الصور التي رسمتها بخيالي بوجوههن وأجسادهن وملابسهن... لم يعد الفضول هو الذي يُشوقني للحضور، بل إلحاح خيالي بأن أرى الصور تتجسد أمامي ... نظرتُ إليها وقلت بتردد وخجل:

- حتى لو حضرت.. فلا يوجد لدي أي ثياب لائقة.. وثيابي التي أحضرتها من عند أهلي أصبحت ضيقة بعد حملي، وهو يرفض أن يشتري لي أي ثياب، لا يوجد لدي سوف قميصين قديمين من قمصانه، وستره قديمة أعطاها لي بصعوبة.. وأحيانًا.....

- ماذا أيضًا؟

- أخيط بيدي ملابسي الداخلية.

- أي حياة هذه التي تعيشينها أيتها المسكينة، زوجك هذا ظالم... اسمعي، سوف أُعطيكِ بعض ملابسي الداخلية، وسوف أُعطيكِ فستانًا من عندي وتعيديه لي لأنه غالي الثمن.. أريدك أن تحضري هل فهمتِ؟.

- ولكنه لو عرف سوف يضربني.

- لن يعرف، وسوف أطلب من ابني أن يراقب الشارع ويخبرنا بمجرد أن يرى سيارته قادمة.

- حسنًا.

غابت للحظات ووضعت الأغراض في كيس أسود وقذفته عبر النافذة، تلقفته بسعادة، لقد كانت تلك المرة الأولى التي أرى بها فستانًا بهذا الجمال، بألوانه الصفراء والخضراء ينساب بين يدي، ارتديته بسعادة غامرة ووقفت أمام المرآة القديمة لأرى وجهي الحزين يبتسم قليلاً، وأرى الهالات السوداء تزداد حدة بسبب انعكاس اللون الأصفر على وجهي... جلستُ على حافة السرير ومسحت دموعي قبل أن تتساقط على الفستان بأزهاره الصفراء...

فكرت بأنني لن أستطيع أن أحضر اجتماع الجارات هذا، فماذا سوف أقول عن نفسي أو عن زوجي؟ بل ولربما أبكي حين يسألنني عن حياتي... نسيت الوقت الذي مضى سريعًا وأنا أنظر للفستان، وتنساب أفكاري مع عروق زهوره الخضراء...

سمعتُ صوت سيارته فقفزت من مكاني لأخلع الفستان بسرعة جنونية ودسسته في الكيس الأسود.. الفستان جعلني أنسى أن أُعد الطعام، فقد مر الوقت وأنا أنظر إليه وأفكر بكل شيء وبلا شيء ووجدته أمامي يسألني عن الطعام... قلتُ بصوت مرتجف:

- لم أُعد الطعام؟

- ماذا؟ وماذا كنتِ تفعلين أيتها الغبية؟

- لا شيء، كنت مُتعبة.

لم يرد، ولكنه تقدم نحوي وصفعني بعنف على وجهي، فوقعت على الأرض والدم ينزف من فمي، أراد أن يستمر بضربي فوضعت يدي على بطني بحركة لاإرادية لأحمي طفلي الذي اعتقدت بأنني اكرهه لأنه ابنه، فصرخت:

- لا تضربني.. ليس لأجلي، بل لأجل ابنك... أرجوك.

كان جسده يقف عملاقًا أمامي، ويده تبدو أطول من المعتاد، وشعرت بأنني أصغر من حجمي الطبيعي، فانكمشت حول جسدي مُحتضنة تلك الحياة الصغيرة والضعيفة التي انغرست بأحشائي.. مكثت دون حراك للحظات منتظرة ضرباته من جديد، ولكن الصمت حل على المكان، فرفعت رأسي باتجاهه ونظرت إليه، ابتعد قليلاً ونظر لي بصمت ثم قال ببرود:

- انهضي.

وبيدين مرتعشتين رفعت جسدي الصغير، وبخطوات مرتجفة اتجهت نحو غرفة النوم أريد أن أبكي وأبكي... أما هو فخرج من المنزل ليُحضر طعامًا جاهزًا... وضعت رأسي بين يدي أبحث بأفكاري عن مخرج لمأساتي التي تبدو كسكين تنغرز بكل يوم أعمق وأعمق بنفسي، كما ينغرز طفله بأحشائي، وتُطحن روحي بين دفتي الرحى التي لا تتوقف عن الدوران.. ولا أجد مخرجًا.

(١٦)

نظرت إلى نفسي في المرآة محاولة أن أُخفي أثر الجرح الـذي علـى شـفتي، ولأول مـرة منـذ شـهور أضـع الماكيـاج علـى وجهـي، ولم يستطع الماكياج أن يُخفي الهالات السوداء حول عيوني، ولا النظرة الكئيبة التي حُفرت على وجهي ولونت نظرة عيوني... من جديـد أردت أن أبكي ولكنني لم أحتمـل فكـرة أن أُصـلح ماكيـاجي مـن جديد فتماسكت ونهضت بتردد نحو الباب...

وقفتُ للحظات والخوف يملأ صدري، هـل أخـرج وأذهـب لبيـت نرجس، أم أبقى كي لا تحدث مشكلة كبيرة معه؟.. وفكرت أخـيرًا بأنه يضربني ويُهينني دون سبب، ولكن هذه المـرة إذا عـرف بـأنني خرجت سوف يوجد سبب ولن أحزن.

بخطوات خجولة مررت بجارات نرجس واحدة تلو الأخرى لأسلم عليهن ولتقدمني نرجس لهن... جلست أخيرًا، وأتت اللحظة التي انتظرتها منذ فترة طويلة، أن أقبع في زاوية مـا وأراقـبهن بصـمت وأقارن الصور التي رسمتها لهن بخيالي مع الواقع...

كان لكل منهن عطرٌ مختلف عن الأخرى، لكن الروائح اختلطـت معًا، وبدأتْ أشعر بالضيق لثقـل تلـك الـروائح المختلطـة الـتي

تنبعث من كل زاوية في المكان، وشعرت بضيق أثقل لأنني لاحظت نظراتهن المتفحصة لي.. يبدو أن نرجس أخبرتهن بقصتي كما أخبرتني بقصصهن... تململتُ في مكاني وبدأ شعوري بعدم الارتياح يزداد حدة، ولكن صوت الموسيقي وضحكات نرجس جعلتنا جميعًا نلتفت لها ونتوقف عن المراقبة... بدأن بالحديث والضحك، وحين تأكدت بأنني لم أعد محط أنظارهن عاد شعوري بالارتياح من جديد...

راقبتُ مرام التي لا تكف عن الضحك رغم التعب الذي يبدو واضحًا على وجهها، فهي تعمل في أحد المحال التجارية من الصباح حتى المساء وتعود للبيت مرهقة لتبدأ بإتمام عمل البيت ومتابعة مسؤوليات أولادها، وذلك دون أي مساعدة من زوجها الذي يجلس يشاهد التلفاز كأنه لا علاقة له بما يدور حوله، وفي نهاية الشهر يبدأ بملاطفتها والتودد لها ليحصل على الجزء الأكبر من راتبها... لقد كانت شبيهة تمامًا بالصورة التي رسمتها لها بخيالي لامرأة مُتعبة فقدت حتى ملامحها الأنثوية وكأنها نسيت أنها امرأة، لقد كانت تجلس باسترخاء تام على مقعدها لا تريد أن تتحرك وكأنها تستغل الفرصة القصيرة من الوقت لتلتقط أنفاسها، وطيبة عميقة تبدو على ملامحها المُتعبة.

أما عبير فكانت مختلفة تمامًا عن الصورة التي رسمتها لها بخيالي ،نظرت إلى الحلي الذهبية التي تتزين بها وملابسها الفاخرة فقد أخبرتني نرجس بأن زوجها ميسور الحال وأنه يُلبي لها كل مطالبها ولكنه يسافر طوال الوقت وتشك بأنه متزوج بامرأة أخرى ولكن لا دليل لديها على ذلك، فتنتابها أحيانًا موجات من الغضب والكآبة لا تتخلص منها إلا خلال الحفلات التي تُقيمها لأجل صديقاتها، لقد كانت صورتها في خيالي أكثر تواضعًا مما هي في الواقع، فهي لم تنظر لي ولم تتحدث معي وكل تصرفاتها توحي بمدى حبها بإظهار ما تملك، كنت أتخيلها أكثر دفئًا ولكنها باردة ومتكبرة أو أنها تبدو متكبرة معي لأن نرجس أخبرتها عني وعن الواقع الحزين الذي أحياه.وهي امرأة جميلة تنحدر من عائلة فقيرة ولكن زوجها الثري أحبها وصمم على الزواج بها رغم رفض أهله، وتضجر دائمًا من أصدقائه الأغنياء ومن التكلف الذي يحيط بحياتهم فتأتي لزيارة نرجس وأهلها لتعود من جديد إلى بيئتها المتواضعة التي نشأت بها ولكنها لا تستطيع أن تأتي دون كل مظاهر الثراء التي لا يُمكن إخفائها ولا أدري هل تبدو دائمًا بهذا التكبر أم أنه بسبب حضوري الغريب بينهن..

أما نورا فكانت تجلس بهدوء ولا تتحدث كثيرًا، لا تتزين بأي حلي، فهي تعلم بأنها مهما فعلت فلن ينظر لها زوجها على أنها إنسانة ذات قيمة، فهو يصفها بالغباء بسبب أو بدون سبب، وأي فشل يواجهه بحياته تكون هي السبب به، وإن نجح بشيء ما تكون هي آخر من يعلم، كآبة من نوع آخر ترتسم على وجهها، وكأنها موجودة ولكنها ليست موجودة وكأنها تخاف أن تتكلم كي لا يُقال لها على الفور بأنها غبية، ولكن بقايا من المرح لا تزال تظهر من حين لآخر من خلال كلماتها، وكأن ذلك المرح هو المُنقذ الأخير لروحها الذابلة.

أما نجلاء فلم تترك لي فرصة التأمل بها، فقد اقتربت مني وجلست بجواري تسألني وتتحدث معي، للحظات لم أدري كيف أرد عليها، فنظرتْ إلى نرجس وقالت:

- جارتك الجديدة خجولة، أم أنها لا تعرف أن تتكلم؟.

ضحكت نرجس وقالت:

- بل تتحدث بطلاقة، ولكنك كعادتك لا تعرفين المقدمات.

عادت من جديد للحديث معي ولطرح الأسئلة، ولم أكن أرغب بالحديث، فأنقذتني نرجس من الموقف بإحضار الفطائر والشاي، وبدأتْ نجلاء بتقطيع الحلوى، وبدأتُ بمراقبتها بهدوء... لم تكن السيجارة تفارق شفتيها وكان يبدو بأنها كانت جميلة في يوم ما،

ولكن وزنها الزائد يكاد يُخفي أي ملامح لها، هي متزوجة ولكن زوجها سافر ولم يعد منذ سنوات بعيدة وتركها تربي ابنتها وحدها، فتعمل أحيانًا في إحدى المحلات أو تبيع ما تعده من الطعام في بيتها، وكلما سألها أحد ما عن زوجها لا تنسى أن تُلحق الإجابة بدعاء طويل عليه وفي كل مرة تكون صيغة الدعاء مختلفة عن الأخرى...كانت صورتها مختلفة تمامًا عن الصورة التي رسمتها لها بخيالي فرغم حياتها الصعبة إلا أنها مرحة ولا تفارق الضحكة وجهها، لم يكن ذلك بقرار منها ولكن طبيعتها العفوية تُضفي جوًا من المرح على كل من حولها.. لاحظتُ مدى محبة صديقاتها لها فأجوبتها البسيطة والعفوية تجعل الأشياء أصغر وأقل ثقلاً، وأنا بدوري أحببتها كثيرًا.

جلسنا جميعًا نأكل ونتحدث ونسيت زوجي، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أشعر بها بالألفة والسعادة منذ أن دخلت لهذا الحي، امتزج شعوري بالسعادة بشعوري بالشقاء، فأنا لا يحق لي حتى أن أشعر بالأمان مع زوجي كلما تذكرت بيتي تذكرت الخوف والوحدة كنت أريد أن أبكي، لكن صوت ابن نرجس الذي أتى مستعجلاً ليُخبرني بأن زوجي أتى؛ جعلني أقفز من مكاني وأركض باتجاه البيت حتى دون أن أُلقي بالتحية عليهن.

وبسرعة جنونية مسحت الماكياج عن وجهي وخلعت فستان نرجس، وركضت باتجاه المطبخ لتسخين الأكل الذي أعددته منذ الصباح... دخل إلى البيت وحل الخوف والقلق... تناول طعامه بصمت وراقبني وكأنه يريد أن يسأل عن شيء ما ولكنه صمت، وحين انتهى دخل إلى غرفة النوم؛ كنت أنظف المطبخ وأفكر بهذا اليوم الجميل، وأيقظني صوته من شرودي.. أعددت له الشاي الذي طلبه مني، وحين أحضرته له قال لي وهو يتفحص وجهي:

- يوجد شيء متغير بكِ اليوم؟

- ما... ماذا... لا شيء...

- بلى، تبدين أجمل.

- هذا بسبب الحمل.

- اقتربي مني...

لم أكن أدري هل سيكون بهذا اللطف دائمًا أم أنه سينقلب بأي لحظة، حتى في اللحظات التي أكون بها معه ينتابني الخوف الشديد من كل تصرفاته، وشيء ما بأعماقي يقول لي بأن وحشًا كاسرًا يربض هناك بأعماقه الدفينة فلا أستطيع أن أشعر بالأمان معه مهما حاول أن يكون لطيفًا، كلما نظرت بشكل خاطف لوجهه الذي يحاول أن يجعله لطيفًا حين يحتاج إليّ، أرى ذلك الوحش البارد والقاسي فيزداد ابتعادي عنه، رغم قربي الجسدي منه.

(١٧)

يبدو الليل قاسيًا وباردًا حين أشعر بأنفاسه القريبة مني وأرغب بأن أكون بأي مكان على الأرض عدا عن كوني بجانبه، حتى الموت يبدو أهون من وجودي بقربه...

وازدادت حدة معاناتي بعد أن رأيت كيف تحيا بعض النساء بسعادة وارتياح ودون خوف ورعب من زوج عنيف لا أعرف ما يدور بأفكاره... تذكرت ملابسهن الجميلة وعطورهن الفواحة والحلي الذهبية التي تزينت بها بعضهن وأحاديثهن عن أزواجهن أما أنا فقبعت صامتة لا أدري عن ماذا أتحدث وأكاد أذوب في الفستان الذي أعارتني إياه نرجس...

لمت نفسي مئات المرات لتلبية تلك الدعوة، لم أشعر بالغيرة ولكن رؤية الآخرين تجعلني أدرك بعمق أكبر مدى حجم معاناتي وعزلتي عن كل ما يدور في هذا العالم، وكأن روحي بحالة احتضار دائمة وتنتظر النفس الأخير لترحل دون حزن على شيء أو على إنسان... فقط هذه الحياة الضعيفة التي تخفق بأحشائي تشدني إلى السطح، إلى الحياة التي أصبحت حياتي، وكأنني فقدت أي صلة مع كل ما حولي، أتحرك في ما يُسمى منزلي وأتصرف مثل أي زوجة، ولكنني أحضر مراسم جنازة روحي في كل يوم أجده ممددًا

بجانبي... وأضع يدي على بطني أريد أن أشعر هذه الحياة النابضة رغمًا عني، فأنا أرغب بوجود هذا الطفل بحياتي عسى أن يغير شيئًا ما بزوجي، ولا أرغب به لأنني أخاف أن يكون ضحية ثانية.

جلست في زاويتي المفضلة في البيت على الأريكة البنية التي تطل على النافذة الضيقة، وتأملت الشارع الضيق أمامي والبيوت الرمادية والأشجار القليلة التي بدت حزينة مثلي، كل ما حولي هو سيمفونية للحزن الذي يبدو رابضًا ومستقرًا حتى في الأشياء التي حولي، فهل أنا التي كست كل ما حولها بهذا الحزن؟ أم أن البيوت التعيسة يبدو أصحابها وأثاثها وأشجارها وكل ما يتحرك بها أو لا يتحرك تعيسًا؟ في هذا البيت تعلمت وأدركت أنه حتى الجماد له روح حزينة أو تعيسة وأن أرواحنا تتقمص كل مساحات المكان والأشياء... في أعماقي لست إنسانه حزينة بل أحب الحياة وأحب أن أرى جمال الأشياء وأن ألمسها وأتذوقها، أحب تلك الجلسات الخفيفة لأشخاص لطفاء مرحين،وأحب أن أطلق لنفسي العنان لتحلق مع شيء من السعادة القصيرة والخفيفة والتي تجعل كل منا ينسى همومًا كبيرة وثقيلة، وكأن هذه الحياة هي نسيج مُتقن من خيوط حريرية أضفت السعادة القليلة نعومتها عليها وخيوط خشنة باهتة الألوان نُسجت مع الألم والكد والتعب بهذه الحياة... ولكن نسيج حياتي تبدو خيوطه خشنة وباهتة الألوان، أحاول أن أجد بعضًا من الخيوط الحريرية ولكن يبدو أن السعادة

الخفيفة البسيطة فرّت من هذا البيت، أو أنها احتضرت لسنوات طويلة ثم ماتت.

ما يؤلمني هو هذا الشعور بأنني لست إنسانة كئيبة، بل بسيطة ويرضيني أي شيء بهذه الحياة: كلمة طيبة وابتسامة وشيء من الحب... حتى أنني لم أفكر بيوم من الأيام بأن زوجي قد يشتري لي كل ما أشتهي فأحلامي كانت دائمًا متواضعة، كنت أريد زوجًا طيبًا وحنونًا، ولكن حتى الأحلام البسيطة تبدو مستحيلة بين هذه الجدران الضيقة... وفي كل يوم أحاول أن أبحث في زوايا روحي ونفسي وعقلي عن مصدر للسعادة... كانت نرجس مصدرًا لها، لكنها لم تعد كذلك، بل أصبحت مصدرًا لمزيد من الحزن لأنها تجعلني أدرك بأن هناك حياة أخرى يحياها آخرون وبسعادة؛ أو على الأقل بارتياح ودون خوف.

أراقب الشارع لساعات طويلة وأرى كل من يذهب ويأتي، بدأت أنسج قصصًا بذهني عن أولئك الغرباء الذين يمرون وأراهم ولا يرونني، حتى أنني أصبحت أعرف موعد عودة كل منهم..كان لابد لخيالي أن يُنقذ وجودي...لقد رفض أن يشتري جهاز التلفاز، وها أنا أجد شاشة أخرى أراقب الحياة من خلالها؛ شاشة يتحرك شخوصها ولكنها شخصيات غامضة وصامتة، ولكن ومع الوقت أدركت بأن الأجساد ليست صامتة كما نعتقد وأن لغة الجسد أكثر

صدقًا من الكلمات.. فالفرح يجعل خطواتهم خفيفة ورشيقة وملامحهم أصغر وأجمل، والحزن يجعل الخطوات ثقيلة ويُضيف سنوات أكثر إلى العمر... أما الحزن الدائم والقابع في الصدور فيجعل الجسد يتحرك وكأنه قطعة من الحديد الصدأ، وبعد سنوات يحل محل الصدأ أمراض كثيرة يتساءل صاحبها من أين أتت وينسى أن الحزن هو القاتل الصامت... وأما الغضب الدائم فهو يجعل كل من نحب يهرب من ذلك الغضب المزمن، يهرب لمكان آخر وإن لم يستطيع الهرب لمكان آخر يهرب بروحه لعالم آخر... فأخطر ما يقطع علاقاتنا الحميمة ويُذيبها هو ذلك الغضب الذي لا يصون حبًا ولا كرامةً..

يسيرون جنبًا إلى جنب، وأعرف أيهم يحب الآخر وأيهم ينفر منه، فالخطوات تبدو متقاربة ولكن الجسد يبتعد بدمه ومشاعره، أما المحبين فتكاد أجسادهم تبوح بتلك المشاعر الفياضة... وأرى تعب السنين الذي لا ينجح أحد بإخفائه، وأرى الفقر الذي أول ما يسحقه هو الخطوات، ثم يتسرب إلى الروح فيشل انطلاقها وعفويتها... الشارع عالم يتحدث عن نفسه بانطلاق وعفوية لا يعرف اللغات ولكنه يُتقن كل اللغات؛ حتى ذرات التراب تصبح مألوفة لمن يسير عليها وتُنسج علاقة حميمة بين هذه الأرض القاسية وهذه الأبدان المتُحركة، يلتحم المكان بالأجساد والأرواح والدموع والدماء، وأقف أنا المتفرجة الوحيدة على مسرحية لا

تنتهي فصولها في مسرح ليس له ستائر مخملية ولا كراسي خمرية، أرى أبطال مسرحياتي في كل يوم، أحيانًا تتكرر فصولها وأحيانًا أخرى تبدو فصولها غريبة وغير مُتوقعة... ساعات الصمت والوحدة علمتني أن كل البشر متشابهين وأن الاختلاف يكمن في الروح والقلب، وأن هناك من يرضى بالقليل وهناك من لا يُشبعه الكثير، وهناك من يرى في الحب ضعفًا وفي الغضب قوة، وهناك من يكره كل شيء حتى ذاته...

تلك الساعات الطويلة علمتني الكثير من الصبر والاحتمال، فلستُ أنا الإنسانة التعيسة الوحيدة على هذه الأرض هناك من هو أتعس مني، والوجوه تخجل من إظهار مشاعر كثيرة ولكنها لا تخجل من إظهار مشاعر الحزن، ولكن من منهم يشعر بالخوف الذي أشعر به؛ ذلك الخوف الذي لم أستطع أن استقرؤه بسهولة إلا من خلال ركض سريع وإلتفات خائف نحو الخلف أو بصرخات حادة، ولكن ذلك الخوف الدفين العميق الذي أشعر به لم أره على وجه أحد منهم؛ ربما لبعد المسافة أو لأننا نخجل من مشاعر الخوف نُخفيها كي لا يظهر ضعفنا الدفين، ولكني لم أُخفي خوفي لخجلي ولكن لأنه عميق ولا أستطيع بعد أن أُعبر عنه، لا أستطيع أن أصرخ ولا أستطيع أن أخرج راكضة من بيتي، لا يزال خوفي جاثمًا في صدري صامتًا، ومنتظرًا لشيء أصعب مما أنا به.

(١٨)

عدنا من المستشفى بصمت، أحتضن طفلي الصغير وأحاول أن أمنع نفسي من البكاء، فقد زارتني أمي وبالكاد استطعت الحديث معها بوجوده... أحضرتْ بعض الثياب لي ولطفلي، ولاحظت نظرته الحانقة... وما أن أصبحنا بمفردنا بالسيارة حتى قال غاضبًا:

- لماذا تحضر والدتك ملابس لكِ وللطفل؟ ألا يوجد لديكِ ولديه ملابس؟

وبصوت متردد أجبت:

- كلا، لا يوجد للطفل ملابس.. وملابسي أصبحت ضيقة عليّ.

فأوقف السيارة وتلقيت أول صفعة على وجهي منذ بداية حملي. أرد أن يتابع ضربي ولكن صراخ الطفل الصغير ونظرات المارة الفضولية أوقفته.

وغرقت بدموع صامتة، كنت أريد أن أخرج من السيارة وأركض بأي اتجاه؛ أن أرحل ولا أعود، أو أموت ولا أراه مره أخرى... وعرفت على الفور بأن مرحلة جديدة تنتظرني فقد منع نفسه عن ضربي بسبب حملي لأنه يرغب بقوة بأن يكون لديه أطفال.

بخوف وخجل وقفت أمامه بعد عدة أيام:

- نحتاج إلى مدفأة لأجل الطفل.. البيت بارد جدًا.

صمت للحظات، ثم نظر لي قائلاً:

- دفئيه ببعض الأغطية.. فهو لا يمشي بعد.

أردت أن أقول له بأنني أيضًا أشعر بالبرد، ولكني خفت أن يضربني إن أجبته بذلك، فقلت بصوت خافت:

- ولكن .....

- ماذا تريدين؟ قلت لكِ غطيه بحرام أو بأي شيء.

لم يكن يشعر بالبرد الذي أشعر به في البيت فأغلب وقته خارج البيت وحين يعود؛ يعود للأكل أو النوم...كنت أشعر بأن عظامي تتفتت تحت وطأة البرد والرطوبة التي غلفت هذا البيت الكئيب.. تذكرت بأنني أحتاج ملابس للطفل، فلم أكن أجرؤ على طلب أي ملابس لي وألبس أي قطعة قماش أعثر عليها بخزانتي أو بملابسه القديمة... فعدت للقول:

- ولكن الطفل يحتاج إلى ملابس وغيارات.

- ماذا؟ والملابس التي أحضرتها أمك، أم أحضرتها كي تُشعرني بأنني مقصر بحقك.. هل أعدتها لها أم بعتِها؟

- كلا إنها موجودة، ولكن الطفل بحاجة لغيار، وما أحضرته أمي لا يكفي.. ثم هناك الفوط.

- اسمعي... ألبسيه أي شيء، أما الفوط فافعلي كما كانت تفعل أمي وأمك؛ استعملي قطع القماش القديمة واغلسيها.. أم تريدين أن تتدللي ولا تغسلي.

أمسك مفاتيح سيارته وغادر دون أن ينظر لي...

وقفتُ بوسط الغرفة دون أن أتحرك، عاجزة عن الفهم أو الرد، وعاجزة عن التصرف.. ماذا سأفعل مع ابني، ماذا سأُلبسه؟ ولحسن الحظ بأنني أستطيع إرضاعه وإلا لرفض أن يشتري له الحليب.

لم أرغب بالبكاء ولم يكن لدي الوقت للبكاء... بدأت باستعمال قطع القماش القديمة، وأُلف ابني بغطاء دافئ إلى أن تجف ملابسه.

انشغالي بابني واحتياجاته واحتياجات البيت جعلتني أنسى معاناتي اليومية معه، ولم أستطع لفترة طويلة الحديث مع نرجس.. وفكرت أخيرًا بأن هذا الطفل الذي لم أرغب بحضوره للحياة؛ قد أخرجني من معاناتي وجعلني أنسى نفسي... فتعلقتُ به كثيرًا وكان احتضاني له بكل يوم شفاء لآلامي العميقة.

طرقات خفيفة على الباب جعلتني أقفز فزعة، فهل عاد مبكرًا من عمله؟.. لم أعد الطعام بعد وقد يضربني وينسى بأنه ليس موعد الطعام بعد... لففت ابني مسرعة وذهبت لأفتح الباب، وكانت نرجس تقف أمامي.. لم أدرِ هل أرحب بها، أم أطلب منها المغادرة خوفًا من حضوره مبكرًا وأن يراها معي...

تلعثمتْ وقالت لي مبتسمة:

- أعرف، أعرف.. أنتِ خائفة أن يأتي فجأة.. لقد أرسلت ابني وأخبرته أن يأتي بسرعة ليقول لنا إذا حضر قبل أن يصل للبيت.. لقد علمت بأنك أنجبتِ ولدًا، فأحضرت لك هدية للطفل.

شعرت بارتياح لوجودها، ودعوتها للدخول...

نظرت إليّ باستغراب وقالت:

- ما هذا الذي ترتدينه؟ ملابس مَنْ هذه البالية؟

- إنها ملابس زوجي القديمة، فهو يرفض أن يشتري لي أي ملابس، وملابسي التي أحضرتها من بيت أهلي أصبحت ضيقة علي.

- ماذا؟ كيف تتحملين هذا الوضع؟ ثم لماذا البيت بارد؟ لماذا لا يوجد مدفأة؟

- لقد رفض أن يشتري مدفأة.

- ماذا تقولين؟ سوف تمرضين أنت وطفلك.. زوجك هذا.....

لم أسمع كلماتها الأخيرة، فقد نهضت وحملت ابني الصغير "حسن" وحين رفعت الغطاء تريد أن تراه بوضوح ذهلت وقالت:

- ما هذا؟ لماذا تتركين ابنك عاريًا تحت الغطاء؟.. سوف يمرض.

لم أستطع الرد، ولكن دموعي بدأت تنهمر على وجهي، ولم أدرِ بماذا أُجيبها.

قلتُ لها بكلمات متقطعة:

- لا تسأليني، أرجوكِ... يوجد لدى ابني أربع قطع من الملابس أغسلها وأنتظر أن تجف كي يلبسها، وإلى أن تجف ألّفه بهذا الغطاء... فهو يرفض أن يشتري له ملابس.

أجابت بغضب وبصوت مرتفع:

- ما هذا الهراء؟ كيف تحتملين كل هذا؟.. لا تقولي لي إنك تغسلين الفوط أيضًا لأنه يرفض أن يشتري فوطًا جاهزة لكِ.

هززتُ رأسي بصمت ولم أعد أستطيع التوقف عن البكاء.

- لماذا لم تُخبريني من قبل.. زوجك هذا بحاجة لتأديب.. إنه حيوان وليس إنسان... وأين أهلك، لماذا لا تُخبريهم بكل هذا؟

- أخاف أن أُخبرهم وتحدث مشاكل، فقد هددني إن شكوت لأهلي أن يسبب لهم مشاكل كثيرة لأنه يعمل بالأمن.. ولا أريد أن أسبب لهم مشاكل... ثم أنه أصبح لدي طفل منه ولا أريد أن أعود لبيت أهلي ومعي ابني... أمي ترفض فكرة الطلاق أصلاً.

- ولكن هذه ليست حياة.. اعذريني، ولكن الحيوانات تعيش أفضل من هذه الحياة.

- إنه قدري ولا أستطيع تغيره... فأنا أخاف منه كثيرًا.

ساد الصمت... فطلبت منها أن تأتي للمطبخ كي أعد الطعام قبل أن يأتي... وقفتْ وسط المطبخ وقالت لي بحزن:

- أنتِ بالفعل مسكينة يا غدير.. لا أدري كيف أستطيع مساعدتك كيف تسمين هذه الزاوية الضيقة مطبخًا؟ حتى أني لا أعرف كيف تستطيعين استعمال هذه الأدوات القديمة بهذا المكان الضيق؟ اسمعي.. إذا احتجتِ أي شيء أخبريني.. وسوف أرسل لك بعض الأشياء مع ابني.

- أرجوكِ... لا ترسلي شيئًا، وإلا سوف يعرف ويضربني.. سوف أُخبرك إذا احتجت لشيء، وحين أجد عذرًا مُقنعًا له.

- لن أنتظر... سوف أرسل لكِ ملابس وأدوات للمطبخ فورًا، وأيضًا ملابس للطفل، وأخبريه أن أمك أتت لزيارتك وأحضرت هذه الأشياء... في كل الأحوال سوف يضربك فدعيه يضربك لوجود سبب.

لم تنتظر ردي وعادت تحمل أغراضًا كثيرة، رتبتها معي، وودعتني قائلة بصوت دافئ:

- اعتبري أن لك أختًا... إذا احتجتِ أي شيء اطلبيه مني.

غادرتْ مسرعة، ووقفتُ أنظر للأشياء التي أحضرتها وأذرف دموعًا صامتة، لقد أصبحتُ موضع شفقة، وشعرت بأنني دون كرامة وأنه لا فرق بيني وبين امرأة تطرق البيوت وتستجدي في الشوارع.. كنتُ أفضل لو أنها لم تأتي ولم تحضر لي شيئًا، فذلك

أهون عليّ من شعور المهانة والانكسار الذي أشعر به، لكن ابـني بحاجة للملابس التي أحضرتها...

مسحتُ دموعي ودسست مشاعر المهانة والهـوان بصـدري، وكـان لابد أن أتابع حياتي، ولكن بكرامة تذوي بكل يوم.

(١٩)

اعتقدتُ بأنه لن يلاحظ الملابس التي ألبستها لـ"حسن"، ولن يلاحظ الملابس التي أعطتني إياها نرجس أو أدوات المطبخ التي أحضرتها لي، فهو بالكاد ينظر لي أو إلى ملابسي، بل يتجاهل ما أرتديه كي لا يسألني وأقول له بأنني بحاجة لملابس جديدة...

وقف أمامي بوجه يخنقه الغضب:

- من أين أحضرتِ هذه الأشياء التي تلبسينها ويلبسها حسن؟ ومن أين أتت أدوات المطبخ هذه؟

لم أستطع أن أتكلم لشدة الخوف الذي ملأ صدري وأنفاسي.. ووضعت يداي فوق رأسي بصورة لا إرادية لأتجنب ضرباته.

- أريد أن أعرف فورًا، وإلا...

رفعت رأسي وبالكاد نظرت إليه، وأجبت بصوت مرتجف:

- إنها... إنها أمي... لقد حضرت... و...جلبتهم.

- ولماذا تُحضر أمك هذه الأغراض.. هل شكوتِ لها؟ ثم ألم تخبريها أنني لا أحب أن تزورك دون أن أكون موجود؟

- أجل... أجل... ولكن...

- ولكن ماذا؟ سوف أتصل بها وأخبرها أن تحضر وتأخذ كل هذه الأغراض.

قفزت من مكاني لشدة الخوف وقلت له بتوسل:

- كلا..أرجوك..هذه آخر مرة، سوف أخبرها ألا تحضر إلا بوجودك وأن لا تُحضر شيئًا معها.

امسكني من شعري، وشدني نحو الأرض قائلاً:

- لستُ أنا من يتبرع له الناس بأغراضهم.. هل فهمتِ؟ حين تحضر في المرة القادمة أخبريها، ولكن ليس أمامي.. هل فهمتِ؟

ودون وعي مني صرخت قائلة لشدة الألم:

- حسنًا... ولكن احضر أنت ما نحتاجه من أشياء.

وقبل أن أُكمل كلامي انهال بضربات عنيفة على وجهي وجسدي فبدأت بالصراخ والبكاء...

- أرجوك توقف... أرجوك...

- أيتها الحقيرة أنتِ وأهلك.. وهل كنتِ تحلمين أن يكون لكِ زوج وبيت.. لولاي لما تزوج بك أحد.. انظري لوجهك في المرآة وانظري لجسدك الذي يبدو جسد امرأة عجوز.

وحين سمعت تلك الكلمات لم أعد أشعر بألم ضرباته، ولكن الألم أخترق روحي فصرخت من جديد:

- ولماذا تُصر على مجامعتي؟

- لأنه حقي الشرعي، ولأنني دفعتُ مالاً مقابل هذا الحق.
وبدأت ضرباته تزداد حدة وعنفًا... وحين توقف كان وجهي قد امتلأ بالدماء، فشد شعري بعنف من جديد قائلاً:
- لقد رفعت صوتك على صوتي، وأجبتني بوقاحة... هذه المرة رحمتك.. المرة القادمة إذا رددت بنفس الطريقة لن أرحمك.
رماني على الأرض وكان لابد أن أنهض بسرعة لأذهب لابني حسن الذي كان يبكي طوال الوقت .. مسحت الدماء التي ملأت وجهي وفتحت أزار قميصي كي أرضعه الألم والقهر.

وحين أتى الليل امتدت يده لجسدي كي يأخذ حقه الشرعي، ولم يكن من حقي الاعتراض؛ رغم اشمئزازي والآلام الجسدية التي أشعر بها، فقد دفع ثمن حقه هذا...
لم يستسلم جسدي فقط، بل عقلي وكل حواسي، لقد أدركت اليوم بأنني لست سوى رهينة ولكن لا فدية لها سوى جسدها وخدمتها له، لقد أفهمني اليوم بأنه لم يعد لي حتى الحق بالشكوى لابد من الصمت والصمت الطويل كي تمضي هذه الحياة التي تُسمى حياتي ولا أدري إلى أين ستمضي؟

انكفئ على وجهي وأدفنه بوسادتي الباردة وأبللها من جديد بدموعي، ويبكي ابني من جديد، ومن جديد أُرضعه الألم والصمت الطويل.. وأعود لمكاني بجانبه لأعد دقائق الليل، وأنظر

للنافذة المُغلقة ولا أرى سوى ستائرها البنية التي تحولت إلى اللون الأسود بظلمة الليل، وأسمع صوت أنفاسه...

قد يأتي الموت ويأخذ أرواحًا لعالم آخر، ولكن الموت يأتيني بكل ليلة؛ لا يأخذ روحي؛ ولكنه يقبع هناك في مكان ما من الغرفة المظلمة يراقبني وأراقبه، تحتضر روحي وتأبى أنفاسي أن تخرج بلا عودة.. وبكل نفس من أنفاسه أغيب عن الوجود وأعود من جديد حين يتحرك بقربي لا أستطيع النوم بجانبه، ولا أستطيع أن أنهض وأنام بأي مكان آخر... أعد الدقائق والساعات إلى أن يؤذن الفجر وأصلي، وأصلي، وأنتظر رحمة من السماء بعد أن جفت الرحمة في الأرض.

نظر إليّ بفتور وقال:

- أمك ستحضر اليوم لزيارتك، وإياك أن تُخبريها عما يحصل في البيت.. هل فهمتِ؟ إذا أخبرتها سوف أُطلقك وآخذ الولد منكِ، ليس هذا فحسب، بل سيقع أهلك بمشاكل كثيرة أولها أنني سأطالب بكل ما دفعته للزواج وبما صرفته عليكِ.

كدت أن أرد عليه بأنه لم يصرف علي شيئًا، ولكنني صمتُ كي لا يضربني مثل المرة السابقة واكتفيت بأن أهز رأسي بالموافقة... نظر إليّ من جديد يريد أن يقرأ شيئًا بنظراتي، ولكنني لم أكن أستطيع النظر إليه بأي موقف من المواقف... فانتبه لذلك وقال فجأة:

- لماذا لا تنظرين لي عندما أتحدث إليكِ؟

- .....

- أجيبي...

- لا أدري، ولكن.....

- لكن ماذا؟

لم أستطع الرد عليه... فخرج وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها، ولم أكن أريد أن أسمعها أو أفهمها.

جلست أمي وأخي بصمت وشعور بالحرج خيم على المكان... بدأت أمي تقول كلمات المجاملة المُعتادة، وتنظر لي من حين لآخر تريد أن تسألني شيئًا ما، ولكن وجوده كان يمنعها من ذلك.. وبعد صمت قصير طلبت أن تتحدث إلي على انفراد، نهضت وأنا أنظر إليه بخوف وقلق، وبخطوات مترددة لحقت بأمي:

- ماذا هناك يا ابنتي؟ لماذا تبدين بهذا الشحوب؟

- لا شيء يا أمي إنه "حسن" يُوقظني كثيرًا خلال الليل.

- وما هي أخبارك مع زوجك؟

- جيدة.

- تبدين مُتعبة.. لماذا لا تحضرين لزيارتنا؟

لم أرغب بأن أقول لها بأنه منعني من الخروج للبيت والذهاب لأي مكان، وأنه يرفض أن يصطحبني معه لأي مكان، فعدت للصمت،

وتذكرت كلامه فأجبتها باقتضاب:

- إنه حسن فهو يأخذ كل وقتي... هيا نخرج للصالة.

- لماذا لا يوجد تلفاز في بيتكم؟

كذبت من جديد وقلت لها:

- سوف يُحضره قريبًا.

- ولماذا لا توجد مدفأة؟ لن أنتظر إلى أن يُحضرها سوف يشتري أخوك مدفأة ويحضرها غدًا... أما التلفاز فإذا لم يحضره قريبًا سوف نشتري لك واحدًا.

وقفتْ وسط الغرفة كأنها لا تريد أن تتحرك، فوضعت يدي على كتفها مبتسمة وقلت لها:

- لا تقلقي، كل شيء يخير... سوف أزوركم قريبًا.

انتهت الزيارة وتصرف زوجي بكل برود وجفاء كي لا تتكرر زيارة أهلي لي مرة أخرى... وحين غادروا سألني:

- ماذا سألتك أمك؟

- لا شيء.. أرادت أن تطمئن على أخباري... لا تقلق، لم أخبرها بشيء... سوف يُحضر أخي مدفأة للبيت.

- لماذا؟ هل طلبتِ منهم ذلك؟

- كلا، ولكن والدتي قالت لي إن البيت بارد جدًا، وأنها ستُحضرها كهدية لنا.

وبامتعاض أجاب:

- حسنًا حسنًا، ولكن لا تعتقدي أنك ستُشغلي المدفأة طوال الوقت، فليس لدي المال لشراء الوقود لها، سوف يتم تشغليها لساعة فقط؛ حين أكون في البيت.

أردت أن أخرج راكضة وأقول لأمي بأن لا تشتري المدفأة، ولكن خوفي منه جعلني أتسمر في مكاني... وتابع قائلاً:

- أرجو ألا يجعلوها عادة ويحضروا دائمًا، فأنا لا أحب هذه الزيارات المملة.

- لا أعتقد أنهم سيحضرون بعد استقبالك الجاف لهم.

نظر إلي بغضب وقال:

- ألم أقل لكِ ألا تردي عليّ بهذه الطريقة... عمومًا أنا مستعجل الآن ولابد أن أخرج.. في المرة القادمة سوف أعلمك ألا تردي بهذه الطريقة.

احتضنت ابني وبدأت بلوم نفسي: لماذا لم أخبر أمي؟ لماذا لا أستطيع أن أقول له أنني لا أريده وأن أترك كل شيء خلفي؟ نظرت إلى ابني الذي يبتسم بوجهي وتذكرت تهديداته لي، وأن أهلي لن يستطيعوا الوقوف بوجهه، ولم أتخيل أن يُفصل أخي من الجامعة بسببي... داعبت ابني وأدركت وفي لحظة قصيرة من حياتي بأنني اتخذت قراري الأخير.. لا أستطيع أن أخرج من هذا البيت،

لا أستطيع أن أسبب كل هذه المشاكل لأهلي وأن أترك ابني الصغير لهذا الوحش فهو بالكاد يحمله ويُقبله رغم إلحاحه منذ بداية زواجنا بأنه يريد أن أُنجب بسرعة.. يريد أولادًا فقط كي يحملوا اسم عائلته، لم يخبرني بأي وقت بأنه يريد بنتًا، ولم أكن أرغب بأن يكون لدي بنت لها مثل هذا الأب...

وهكذا تحول قراري البسيط إلى منهج حياة، إلى صمت مُطبق تجاه كل ما يدور حولي... لست إلا مخلوقًا يتجول بين هذه الجدران الباهتة يؤدي المهام المطلوبة منه، وتبدأ أيامي وتنتهي لهدف واحد هو إرضاؤه، وأن أحاول أن أجعله صامتًا قدر استطاعتي.

أحضر أخي المدفأة؛ التي كانت تبقى باردة طوال اليوم، ولا يُشغلها إلا لساعة حين حضوره إلى المنزل... وبقي البيت غارقًا بالبرد، ولا أجد سوى الملاءات القديمة أُدفئ بها ابني حسن.

(٢٠)

لم أكن أريد أن أُنجب طفلاً آخر منه، فطلبت من نرجس أن تشتري لي أقراص منع الحمل لأنه يرفض أن أضع أي مانع للحمل... تناولت منها الأقراص على عجل وخبأتها كي لا يراها، وطلبت من نرجس أن تشتري لي هذه الأقراص في بداية كل شهر.

بدأ ابني يمشي... وكانت تلك من لحظات السعادة القليلة التي عرفتها في حياتي معه، أن أرى ابني يمشي ويتكلم ويلعب معي بأدوات المطبخ القديمة... لم أكن أدري بأن خطوات ابني الصغيرة هذه سوف تجلب مأساة أخرى لي...

كنت في المطبخ أُحضر الطعام، وكان زوجي يجلس في الصالة، وكنت أعتقد بأن حسن نائمًا، لكنه كان يلعب بأغراضي في غرفة النوم... خرج من الغرفة متجهًا نحو والده وبيده علبة أقراص منع الحمل... سمعت زوجي يصرخ مناديًا علي:

- تعالي فورًا إلى هنا أيتها الحقيرة.

أتيت راكضة خشية أن يكون قد حدث مكروه لحسن...

- لا تنظري إليه، بل انظري لي... ما هذا؟

لم أعرف بماذا أرد وشعرت بأن الأرض تدور بي..كيف عثر عليها.

- إنه ابنك الذي عثر عليها وأحضرها لي.. أيتها الكلبة.

وقف أمامي وبدأت صفعاته العنيفة تنهال على وجهي، وسط صراخ حسن... شدني من شعري قائلاً:

- أريد أن أعرف شيئًا واحدًا.. كيف حصلتِ عليها وأنت لا تخرجين من المنزل؟ إن لم تُخبريني سأقتلك وأقول لأهلك والشرطة بأنني ضبطتك مع عشيقك في بيت الزوجية، وأنك تتناولين أقراص منع الحمل هذه كي لا تحملي منه.

ازدادت صرخات حسن حدة وبدأ يُمسك بملابسي، وخفت أن تُصيبه أحدى ضربات والده الموجهة نحوي فقلت بسرعة:

- سأُخبرك، ولكن دعني آخذ حسن بعيدًا.

ضممته إلى صدري وذهبت به إلى غرفة النوم لتهدئته، وكي أفكر ولو للحظات ماذا سأخبره، ولكنه أتى إلى الغرفة كوحش هائج:

- إن لم تقولي الآن الحقيقة سوف أعتبر أن لديكِ عشيقًا، وأن هذا الولد ليس ابني.

وفي تلك اللحظة لم أتردد بقول الحقيقة كي لا يُنفذ تهديداته لي...

- إنها جارتنا نرجس.

- ماذا؟ وكيف تحدثتِ مع تلك الحقيرة؟

- لقد أتت لزيارتي لتُهنئني بولادة حسن.

- وأنت لم تُخبريني؟.. وماذا أخبرتها عني؟.. أخبرتها كل ما يدور بهذا البيت، أليس كذلك؟

لم أعد أستطيع الرد فقد عاد لشد شعري من جديد... وضعت حسن على الأرض كي لا يقع من بين يدي، وبدأتْ ركلاته وصفعاته تنهال على جسدي... شعرت أنه يضربني ليس بسبب الحبوب، بل لأن التي رفضته تعرف شيئًا ما عن حياتي الفظيعة معه... استمر ضربه لي، وكان طيف نرجس يرتسم على ملامحه، لم يكن يضربني، بل يُخرج كل الغضب القديم لأنها رفضته وأنها أنقذت نفسها من زواج مُدمر...

كنتُ أصرخ لشدة الألم في البداية، وكنت أسمع صرخات حسن بجانبي دون أن أستطيع أن أفعل له شيئًا، ثم توقفت عن الصراخ ووضعت رأسي بين يدي بصمت دون أن أرد ضرباته...

لم يتوقف إلى أن شعر بالتعب... وخرج من البيت وهو يشتمني بأبشع الألفاظ.

نهضت من مكاني بصعوبة لأغسل أثر الدماء التي ملأت وجهي وملابسي.. صرخات حسن لم تترك لي الوقت لتضميد جراحي.. حملته بين ذراعي واختلطت دموعي بقطرات الدماء التي كانت تنزف من وجهي... نظرت إليه محاولةً تهدئته، ولأول مرة أرى نظرات الهلع بعيون ابني الطفل البريء.. لقد أدرك بغريزته الفطرية أن ما يحدث مُخيف... عيونه ودموعه وحركات جسده الصغير كانت تُعبر عن خوف عميق جعله يرتجف بين يدي...

في تلك الليلة نسيت الآلام الفظيعة التي كنت أشعر بها، فقد ارتفعت درجة حرارة حسن وكان لابد من أخذه على الفور للمستشفى... أردت أن أذهب معه، لكنه قال لي ببرود:

- لن تخرجي بهذا المنظر.

- ماذا؟... سوف تأخذه لوحدك للمستشفى؟

- أجل.. لا أريد أن يراك أحد الأطباء وأنتِ بهذه الحالة... لن يفهموا أنه خلاف بين رجل وزوجته.

وأدركت أنه لا يريد أن يرى أحدٌ آثار الكدمات والجروح على وجهي، بل كان يخاف أن يرني أحد الأطباء في المستشفى فيسألوني من الذي تسبب بهذه الكدمات والجروح. بقيت لعدة أيام لا أنام، إلى أن تعافى حسن من مرضه، وكنت أعرف بأنه مرض بسبب الهلع الذي أصابه... فقلتُ لزوجي بعد أن تأكدت من شفائه:

- ربما لا أستطيع أن أمنعك من ضربي، ولكن أرجو ألا تضربني أمام ابنك، لقد مرض بسبب الذي رآه في ذلك اليوم، هو لا يفهم بعد ما الذي يحصل، ولكن الهلع أصابه لذلك.

قاطعني دون أن ينظر لي:

- تجنبي أنتِ أسباب ضربي لكِ.

أردت أن أقول شيئًا، ولكنني عدت للصمت، فالحديث لا يُجدي معه.. انسحبت بصمت لأتجنب المزيد من الحديث معه.

أصبحت أتجنب نرجس، وأعتذر كلما أرسلت لي ابنها، ولا أحاول أن أتحدث معها عبر النافذة، فلم أكن أريد المزيد من المشاكل لي أو لها، وأعدت لها كل ما كان تُرسله... إلى أن وجدتها أمامي تقف أمام باب البيت... ودون مُقدمات سألتني:

- ماذا هناك؟ لماذا تتهربين مني؟

- لا شيء.. أنا مشغولة مع ابني.

- لقد قلقت عليك... ثم لماذا يبدو عليك التعب بهذه الصورة وما هذه الكدمات؟.. آه نسيت لقد ضربك، أليس كذلك؟

ودون أن أبحث عن كلمات المجاملة قلت لها:

- نرجس.. انسي أمري... لقد ضربني لأنه عرف بأنك اشتريت حبوب منع الحمل لي، وأنك أرسلتِ لي بعض الأغراض... وهددني بالمزيد من الضرب وأن يؤذيكِ ويؤذي زوجك... انسي أمري، لا أستطيع أن أفعل شيء لحياتي، ولابد أن أربي ابني الصغير، لا أستطيع تركه مع هذا الوحش.

- كيف تستطيعين الصبر على كل هذا؟

- أنا مؤمنة بأن الله سيقف معي، ولكنني لا أستطيع أن أتخلى عن ابني، وأن أسبب المشاكل لك أو لأهلي.

- ولكن....

لم أحاول إخفاء دموعي التي انحدرت على وجهي:

- أرجوكِ يا نرجس.

-حسنًا.. ولكن عديني إذا احتجتِ لأي شيء أن تطلبيه دون تردد، وأن تأتي لبيتي إذا احتجت لأي شيء.

أغلقتُ باب بيتي وعدت لعالمي الحزين بلا أمل، بلا كلمات تؤنس وحدتي، وبلا نرجس التي كانت نافذتي الوحيدة للعالم الخارجي.. أُغلقت كل النوافذ والأبواب، وبقيت نافذتي الوحيدة المُطلة على الشارع الطويل، أرى الشمس من خلالها ولا أشعر بدفئها، وأرى المطر ولا أبتل بقطراته، وأرى الرياح تعبث بملابس الناس وأغصان الأشجار، وأبقى أنا جامدة دون حراك... تمر الأشياء والوجوه والساعات والأيام وأبقى أنا أراقب حياتي من نافذة نفسي فلا أرى بها شمسًا ولا قمرًا ولا مطرًا ولا سماء.

سنوات مرت وأنا لا أزال أراقب الوجوه والأشياء وذاتي التي تذوي.. وباستسلام لاعقلاني أنجبت ولدين آخرين، أصبح لدي حسن ومنصور وكامل.. ربيتهم كما ربيت حسن؛ بالقليل الذي توفر، وبالبرد الشديد الذي كان يغرق به البيت في فصل الشتاء، والزيارات للطبيب الأرخص أجرًا الذي يقطن في الحي القريب منا لمرض أولادي المتكرر بسبب البرد.

وتعلمتُ الصمتَ الطويل، وإذا أراد أن يضربني؛ رجوته أن يضربني بعيدًا عن أعين الأولاد.. وحين ينتهي أخرج لألبي حاجتهم.

لا أدري إن كنت بطلة أم مجرد أم وامرأة ضعيفة قررت أن تكون زوجة وأم إلى آخر لحظة من لحظات حياتها، حتى ولو كلفني ذلك كل رغباتي وكل أحلامي وآمالي البسيطة.

(٢١)

بدأ ببناء بيت جديد على قطعة أرض كان يمتلكها، واصطحبنا ذات يوم لرؤية البيت الذي على وشك الانتهاء.. كان البيت يقع في منطقة بعيدة لا يوجد بها إلا القليل من البيوت، أصابني الخوف لرؤية البيت الجديد، لقد كنت أشعر بشيء من الأمان بالبيت القديم لوجوده بوسط حي يعج بالسكان والحركة،وأنني بأي وقت أضطر بها للخروج سوف أجد مساعدة ما من الجيران، وشعوري بأن نرجس قريبة مني رغم أنني لا أراها ولكنني أعرف بأنها ستقدم لي أي مساعدة أحتاج لها...

وقفت أنظر للبيت، وتجمدت الدماء بعروقي، فقد شعرت بأنه سيكون قبرًا لي، وأنه لو قتلني سوف يدفنني بحديقة هذا البيت المعزول، ولكن شعور آخر راودني، وهو أنني لن أعيش بهذا البيت، فهل سأموت به أم هل سوف أرحل عنه؟

لملمتُ ملابسي القليلة وملابس أولادي ودموع صامتة تنحدر على وجهي أحاول أن أُخفيها عن أولادي الفرحين بانتقالهم للبيت الجديد، كنت أريد أن تنشق الأرض وتبتلعني قبل أن أدخل لذلك البيت المنعزل.

انتظرت خروجه لنقل بعض الأغـراض، وذهبـت مسـرعة لبيـت نرجس لأودعها....

- أنت هنا؟.. تفضلي.. ادخلي.

- لا أستطيع، أريد أن أُخبرك بأننا سننتقل لبيت جديد، وهذا هو عنواني.. لا تحضري لزيارتي، ولكن احتفظي بالعنوان.

- ولكن لماذا لم تتحدثي معي من قبـل مـن نافـذة المطـبخ؟ كنـت أريد أن أُعطيكِ بعض الأشياء.

- لقد أغلقها بإحكام... أشكرك، ولكنني لا أحتاج شيئًا.

وقفت أمامها ولم أمنع نفسي من البكاء، فقالت بغضب:

- لماذا تتحملين كل هذا؟ لو كنت مكانك لتركته منذ زمن.

وبصوت مخنوق أجبتها:

- وماذا يحل بأولادي؟.. لقد انتهت حيـاتي، ولكـن هـم يبـدءون حياتهم.

انسحبت مسرعة قبـل أن يعـود ونظـرت للمـرة الأخـيرة للبيـت الكئيب الذي عشت به سنوات الألم والوحدة وكنت أعـرف بـأن رحلتي مع الألم لم تنتهي بعد...

ركض الأولاد في أرجاء المنزل الواسع يغمرهم الفرح لوجود غرف أوسع ولوجود أرض خارج البيـت يلعبـون بهـا،ووقفـتُ وسـط الصالة الواسعة لا أدري هل أفرح أم أحزن... سألته بصوت متردد:

- لماذا لم يتم دهن الجدران؟
- سوف تقومين أنتِ بدهنها.
- ماذا؟ ولكنني لا أعرف كيف أدهن.
قاطعني بلهجة آمرة:
- سوف تتعلمين.

في كل خطوة بقربه أرغب بأن أهرب مُبتعدة عنه لأي مكان في العالم، ولكن أنظر لأولادي وتنغرس قدماي بالأرض التي يقف عليها.. أدفن الألم والدموع وأتابع الطريق لأجلهم.

وخلال أيام كنت ألبس ملابس العمل وأُمسك فرشاة الدهان وأصعد السلم الطويل كي أدهن الجدران مثلما علمني.. ويعود من عمله يطلب مني أن أُعيد دهن هذا الجدار أو ذاك... عملت لأيام طويلة بصمت إلى أصبح للجدران لون أبيض... رغم كل التعب الذي شعرت به إلا أن فرحًا بسيطًا غمرني حين رأيت البيت يكتسي بلون أبيض، وللحظات شعرت بأن ألمي أخف من السابق وملأني الأمل بأن هذا اللون قد يكون بداية جديدة لي... ربما يتغير زوجي... ربما يُصبح أكثر لطفًا معي، فالألوان تغير؛ تؤثر في القلوب والأرواح، وها أنا ألمس هذا التغير بنفسي...
نظرتُ عبر النافذة إلى الأرض الجرداء، وقررت أن أزرعها.. تخيلت أن هذه الأرض الجرداء أصبحت خضراء، وأن زهورًا كثيرة تتسلق

نوافذ البيت... أحد نعم الله التي لا تُحصى علينا هو هـذا الخيـال الذي ينقلنا بلحظة ما إلى عالم آخر؛ عالم نُحبه؛ نرسمه كمـا نريـد؛ نلونه بألواننا الخاصة ونسـتمع بـه لأصـوات نحبهـا.. تتمـاوج بـه النسمات الصيفية مع حفيف أوراق الشجر الخضراء، وأشم عبير الزهور بحديقتي الغناء، وأنسى كـل الألم والجفـاء، وأداوي جـراح نفسي تحت ظل شجرة دافئة، وأنسى وأنسى...

كنت أتمنى أن يكون هذا البيت الجديد بدايـة لحيـاة جديـدة، كـان الأمل لا يغادرني بأن يتحول زوجي لإنسان حنون ودافئ، ولكـن كانت تلك أمنية تحتضر في كل يوم عشرات المرات.

وفي يوم بارد وكئيب، عاد زوجي مبكرًا من عملـه، وكانـت تلـك هي المرة الأولى التي يعود بها مبكرًا من عملـه منـذ أن تزوجنـا... نظرت إلى وجهه العابس، وشعرت بأن هناك شيء ما قد حصل... سألته بقلق عن سـبب عودتـه مبكـرًا، أجـابني بصـوت مقتضـب ودون أن ينظر لي:

- لا شيء.. ولكن قد آخذ إجازة لعدة أيام.

- ولكن....

ذهب إلى غرفة النوم دون أن يرد.

واستمرت الإجازة لأيام وأيام... وحين سألته مرة أخرى عن عمله، قال بغضب:

- لم يعد هناك عمل، لقد تقاعدت.

- ماذا؟ ولكنك لم تصل بعد لسن التقاعد.

- يوجد شيء اسمه تقاعد مبكر... وأنا أعمل منذ سنوات طويلة ولقد تعبت.

- ولكنك لا تزال.....

وقبل أن أتابع قاطعني بغضب:

- ماذا تريدين بهذه الأسئلة؟.. قلت لكِ أخذت تقاعد مُبكر... أم هل تكرهين وجودي في المنزل؟.

- لا.. لا.. ولكن هل تفكر بأن تعمل شيئًا آخر؟.

- أنا أبحث منذ فترة عن عمل، ولكن كلما عرفوا بأنني كنت أعمل بجهاز الأمن يرفضون توظيفي.

- وكيف سوف تُغطي مصاريف البيت؟

- يوجد معاشي التقاعدي، وتوجد بعض الإيجارات التي آخذها من ميراث أبي.

ولأول مرة أشعر بالتعاطف معه... كنت أرغب بأن أكون زوجة حقيقية له تُشاركه أفراحه وهمومه؛ ولأول مرة أشعر بأنني هذه الزوجة... شعرت بالسعادة لأنه يحتاجني؛ حتى ولو بدا ضعيفًا وهشًا أمامي... فقلتُ له بهدوء:

- عمومًا... نحن معك مهما كانت الظروف، فأنا زوجتك وأم أولادك، وإن شاء الله تجد عملاً قريبًا.

هز رأسه دون أن يرد، وطلب مني أن أعد له الشاي.

وخلال تلك الأيام القليلة، كان يبدو هادئًا؛ بل وحنونًا بعض الشيء... شعرت بسعادة غامرة فأنا لم أكن أريد أكثر من هذا الدفء البسيط، وهذه الكلمات الهادئة...

حتى أنني شعرت بأنني قد أُحبه بصدق إن بقى بهذا الهدوء.

(٢٢)

باءت محاولاته بالفشل لإيجاد عمل جديد، وبدأ وجهه يتخذ ملامح جديدة أشد جفافًا وقسوة... وحين أتحدث معه يُحدق بي بشكل غريب، فلا أجرؤ على سؤاله لماذا ينظر لي بهذه الطريقة.

لأيام وأيام حاولت ملاطفته وإبداء عاطفة صادقة تجاهه، خصوصًا كلما رأيت ملامح وجهه اليائسة ازداد إشفاقي عليه، ولكن هناك نوع من الرجال لا يجب أن تدخل أي امرأة إلى حياتهم؛ نوع يعيش بداخل نفسه أكثر مما يعيش مع من حوله، وإن خرجت نفسه للقاء الآخرين فلا يكون ذلك إلا لتفريغ شحنة ما من السموم التي فاضت عن طاقته الذاتية.. ومن تعيش مع هذا النوع من الرجال تعيش مسممة في كل دقيقة من حياتها معه، فلا ترياق يُشفي من تلك السموم.

لم أكن أعرف ماذا كانت طبيعة عمله في الأمن، ولم يُحدثني عن أي تفاصيل حول عمله قبل الزواج ولا بعد الزواج، لكنني اكتشفت طبيعة عمله من خلال الكلمات التي كان يقولها وهو نائم بعد أن توقف عن العمل، ومن خلال صراخه الليلي الذي يُشبه العواء.

كانت تلك ليلة مُرعبة، فلأول مرة أستيقظ بها على صوته يتحدث خلال نومه، استيقظت مُعتقدة بأنه يتحدث معي، ولكنه كان نائمًا، وكان يقول بصوت حاد ومنفعل:

- هيا، أحضروه.. سوف أُكسر عظامه وأقتلع أظافره.

ثم يصرخ:

- كلا...كلا... سوف يقتلوني... سوف يذبحوني.

نهضت من السرير فزعة لما أسمعه وأراه، فالعرق كان يتصبب من وجهه الذي كان يبدو مخنوقًا، ويداه وقدماه تتحرك كأنه يضرب أحدًا ما، أو يتلقى الضربات من أحد ما، ولا يتوقف عن الصراخ بصوت حاد كأنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة.

وقفت فزعة لا أدري كيف أتصرف، وخرجت من الغرفة والخوف يملأ صدري، وجسدي لا يتوقف عن الارتجاف... بقيت جالسة أُحدق في الفراغ إلى أن أذن الفجر، تأخرت في أداء الصلاة فقد جرفتني أفكاري إلى شكوك كثيرة...

شعرت بأنني بدأت أعرف ماذا كانت طبيعة عمل زوجي...لقد كان يقوم بالتعذيب كي يحصل على اعتراف من المُعتقلين والسجناء.

أولئك الذين يريدون قتله هم من عذبهم خلال سنوات عمله وهو لا يزال يريد أن يضرب ويُعذب.

صليتُ الفجر ودعوت الله أن أكون مخطئة، وأن يكـون هـذا مجـرد كابوس يمر به زوجي، وألا يتكرر هذا الكابوس مرة أخرى...
ولكن الليالي التي توالت بعد ذلك أكدت لـي شـكوكي، خـوف دفين وغريب استقر بأعماقي.. وكلما تحرك بجانبي ارتجفت، وكلما نظر لي أصفر لوني.. كلما نظرت إليـه تخيلتـه يضـرب ويُعـذب أحدًا ما فيقشعرُ بدني.. فهذا هو الرجـل الـذي أُسـلمه جسـدي، وتلك هي الأيدي الـتي ضـربت وعـذبت وربمـا قتلـت أبريـاء أو مذنبين باسم قانون ما أو لتنفيذ أمر ما.

كانت نظراته الشرسة تجاهي تجعلني أرغب بالفرار، ولكـن كيـف أترك أولادي معه؟ في كل يوم يمر أقرأ في عينيه رغبة دفينـة وتـزداد إلحاحًا بأن ينقض علي لضـربي، ولكـن صـمتي وطـاعتي العميـاء جعلاه يلزم الهدوء والصمت.
إلا أن طاعتي وانصياعي التـام لأوامـره لم يعـودا يكفيـان... وقـف أمامي وبدا كأنه عملاق لشدة خوفي منه، وبدا صوته أكثر خشـونًا وأعمق من قبل:
- سوف أُحضر غرفة نـوم جديـدة بعـد يـومين، وسـوف تقـومي بتركيبها.
أجبته بدهشة مُعتقدة أنه أخطأ:
- ولكنني لا أعرف كيف أركب غرفة نوم.

وقبل أن أتابع كلماتي انهالت صفعاته على وجهي، وقال بصوت هادر:

- سوف تتعلمين تركيبها أيتها الحقيرة.

وقعتُ أرضًا والدماء تسيل على وجهي...

وأدركت بأن فصلاً جديدًا يبدأ في حياتي، لن يُجدي به الصمت ولا الطاعة.

(٢٣)

أنزل العمال قطع الخشب المتناثرة، وكـان علـي أن أبـدأ بتركيـب غرفة النوم، وقد فهمت بأنه قد حصل عليهـا مجانًـا مقابـل خدمـة قدمها لأحد التجار خلال فترة عمله في الأمن، ولم يكـن يريـد أن يدفع للعمال أي نقود مقابل تركيب غرفة النوم.

أمسك بشاكوش وكيس مليء بالمسامير، وضعها أمامي قائلاً:

- هيا ابدأي بالتركيب.

لم أرد عليه، لأنني كنت أعـرف نتيجـة أي اعـتراض مـن قبلـي ... أمسكت بالأدوات والدموع تنهمر علـى وجهـي، لم أكـن أعـرف ماذا سأفعل وكيف سأتصرف.. وبدأت بتجميع بعض القطع بمشقة بالغة، وحين ركبت قطعتين منها أتى ليرى ما الـذي أفعلـه، فقـال بغضب:

- أيتها الغبية، هذه القطعة مكانها ليس هنا.

ودون تفكير قلتُ باكية:

- ولكنني لا أعرف كيف أركب هذا الخشب.

لم يجاوبني، ولكنه غاب لدقائق وعاد يحمل عصًا غليظة... لم أصدق عيناي، وأعتقدت بأنه يريد أن يخوفني بها، ولم أدرك ما الذي يحدث

حولي إلا حين أنهال علي بالضرب بالعصا الغليظة.. كان يضربني ويصرخ كوحش كاسر... وقعت على الأرض دون مقاومة، بدأت الدماء تسيل من يداي وقدماي وتتناثر على الأغطية وعلى الجدران... نظرت إلى دمائي المتناثرة وأصابني الهلع، وبدأت بالصراخ... لم يتوقف عن ضربي إلا حين رأى بقع الدماء في كل مكان في الغرفة، توقف عن الضرب وقال لاهثًا:

- الآن ارتحت.

لم أعد أشعر بما يدور حولي... وأفقت فجأة على مياه باردة سكبها على وجهي وجسدي، وقال بلهجة آمرة:

- هيا انهضي، سوف أُعقم جراحك.

لم أستطع أن أنهض، فجرني بقوة وأجلسني على الأريكة بعد أن وضع شرشف كي لا تتسخ ببقع الدماء التي ملأت جسدي.. وبدأ بوضع الشاش والمُعقم.

قال لي بصوت هادئ:

- سوف أعد الشاي.

غاب لدقائق وعاد يحمل صينية الشاي... لم أدرِ كيف سأحمل كأس الشاي وكيف سأشربه، ولكن خوفي منه أجبرني على تجرعه رغم الآلام الشديدة التي كنت أشعر بها.

تمدد على الكنبة المجاورة لي... وجلست صامتة والرعب والألم ينهشان جسدي وروحي، لم أعد أدري كيف أتصرف، حتى أنني كنت خائفة من التأوه لشدة الألم الذي كنت أشعر به.. وللحظات شعرت بأنني أكاد أن أفقد الوعي، ولكنه نهض وأقترب مني، لم أفهم لماذا يقترب مني وأنا بهذه الحالة... وخلال لحظات فهمت ما الذي يريد... استسلمتُ له دون أي مقاومة، وكأنني جثة ميتة منذ سنوات بعيدة... وأدركت وبعمق بأنني متزوجة من وحش، بل إن الوحوش تُشفق على بعضها البعض أحيانًا... كل الألم الجسدي الذي شعرت به خلال ضربه لي، لم يعادل الألم المعنوي الذي كنت أشعر به وهو يأخذ حقه الشرعي؛ كما يردد ذلك دائمًا.

قضى حاجته، وجلس يحتسى الشاي بهدوء... لم أكن أتمكن من الحركة، ولكن كان لابد أن أغادر الغرفة وأن أغسل آثار الدماء قبل أن يحضر أولادي... أحضرت أدوات التنظيف وبدأت أنظف بقع الدماء الموجودة على الأرض وعلى الجدران.. وقفت في المطبخ لإعداد الطعام والأرض تميد بي.. لم يعد هناك ما أفكر به سوى أن أقف على قدمي وأُنهي أعداد الطعام، لم أعد أفكر بالسعادة أو الشقاء، بالكرامة أو المذلة، بالهروب أو البقاء بالحياة أو الموت... ولأول مرة أُدرك أن أسوء حالات الإنسان هي توقفه عن التفكير، ربما تُجبره آلام الجسد على عدم التفكير أو قسوة الآخرين، ولن

أقول قسوة الحياة، فالحياة التي منحنا إياها الله ليست قاسية ولكن الآخرين يجعلونها صعبة وقاسية بل ومستحيلة.

أحرك قطع اللحم والخضار بحركة دائرية ولا شعورية، وتدور الأشياء حولي كما تدور قطع الطعام في الحلة الكبيرة، ويغشى بصري سواد دامس، وفجأة يتوقف كل شيء عن الدوران وأسقط على الأرض مغميًا علي.

حين استيقظت وجدت أولادي حولي بعيونهم الحزينة دائمًا، والتي بدت اليوم أكثر حزنًا، سألني ابني الكبير ما الذي حدث وما هذه الجروح في جسدي؟

فقلت بصوت حاولت أن أجعله يبدو طبيعيًا:

- لقد وقعت.

هز رأسه غير مصدقًا لما أقول...

خنقت دموعي، وكان سؤالي الأول كالمعتاد:

- هل أكلتم؟

- أجل... أجل...

- يجب أن تذهبوا للدراسة.. سوف ألحق بكم لمراجعة دروسكم.

- ولكنك متعبة.. سوف ندرس وحدنا.. ابقي نائمة.

كان لابد أن أفعل شيئًا وأن أنهض كي لا أغرق من جديد بواقعي لا أريد أن أفكر، أريد أن أتحرك وأتحرك إلى أن يُنهك جسدي.. ولا أُعطي فرصة لعقلي للتفكير.

(٢٤)

لم أعد أشعر بالأمان، أخاف من نظراته ومن حركاته؛ خصوصًا بعد أن يذهب الأولاد إلى المدرسة، فهو يحاول وبصعوبة أن يمنع نفسه من ضربي أمام أولاده، وأشعر بأنه لن يستطيع أن يمنع نفسه لفترة طويلة.

لا تزال آثار الجروح والكدمات على جسدي، ولكن لابد أن أتجاهلها وأن أقوم بواجباتي اليومية.. ولكن الخوف بدأ يشل تفكيري...كان ذهابه إلى عمله يخفف من الواقع الصعب الذي أعيشه معه، ولكنه الآن يجلس في البيت طوال الوقت وأشعر أن وجوده يكاد يخنقني، فإن لم يعتد علي؛ تبقى نظراته تحاصرني.

وفي محاولة أخرى مني كي أشعر بأنه لا يزال زوجي رغم كل شيء، ولأنني بحاجة للأمل لكي أستمر بحياتي.. أحضرت له الشاي وجلست كي أتحدث معه، وقلت بهدوء:

- أنت زوجي وأب أبنائي.. فلماذا تعاملني بهذه القسوة؟

لم يرد علي، وتابع شرب الشاي بهدوء.

- أرجوك، أتمنى أن نعيش معًا بهدوء، نحن بحاجة لك، وهذه عائلتك.. فلنحاول معًا أن نعيش براحة.

وقبل أن أتابع كلامي قال بصوت جاف:

- هيا اذهبي وتابعي عملك.. لا أريد المزيد من الكلام، ولا أريد أن أراك جالسة دون عمل... هل فهمتِ؟

نهضت مسرعة قبل أن يغضب، وقال بصوت متهكم:

- عائلة سعيدة...

كانت تلك آخر محاولاتي... وأدركت بأن ما يحدث في هذا البيت ليس شيئًا يتعلق بإرادته بأن يحدث، بل هو شيء ليس بإرادته... هناك في أعماق نفسه ظلام دامس يمنعه من رؤية الأشياء أو الإحساس بها.. هناك غضب وحقد وظلم للآخرين ولنفسه، ولن أكون أبدًا النور الذي يضيء تلك الظلمات، فهذا فوق قدراتي، ولست سوى ضحية وقعت في متاهة الظلام.

لحق بي إلى المطبخ قائلاً:

- اليوم سوف تنظفين الحديقة وتحرثين الأرض، والبسي هذه الملابس وضعي هذه اللفحه كي يعتقد الجيران بأنك عامل ولستِ زوجتي.

في البداية لم أفهم ماذا يطلب مني، وحين لاحظ جمودي في مكاني، عاد للقول بصوت غاضب:

- أيتها الغبية...

تناولت الملابس، وكانت ملابس لرجل قديمة ولفحه سوداء كبيرة، وبصمت ارتديتها وربطتُ البنطال الواسع بحزام قـديم، ولففـتُ اللفحة كي أُخفـي وجهـي، وحـين نظـرتُ إلى المـرآة لم أعـد أرى جسدي أو ملامحي، فقد اختفيتُ خلف صورة لرجـل مـا ضـعيف الجسم... وتوجهت بصمت للحديقة للتنظيف والحراثة.

بعد ساعات من العمل جلست كي ألتقط أنفاسي، وكان يـراقبني من النافذة، فصرخ بحدة:

- عودي للعمل،أريد أن تنتهي قبل أن يحضر الأولاد من المدرسة، هل فهمتِ؟

عدت من جديد وتابعت العمل بصمت ودون بكاء.

وحين انتهيت دخلت مسرعة لإعداد مائدة الطعام... وخلال دقائق كان الأولاد في البيت، وكنت أحاول أن أجعلهم يشـعرون بـأنهم يعيشون في بيـت مثـل أي بيـت آخـر، فـأُخفي آلامـي ودمـوعي، وأُخفي الجروح التي في يدي بلبس كفوف سوداء.

في كل يوم أبذل جهودًا مُضنية بأن يحيا أولادي حياة طبيعية... ألـبي رغبات زوجي بكل طاعة كي لا يغضب وكي تمر ساعات وجودهم في البيت بهدوء..السعادة كانت حلم مستحيل بهذا البيت،ولكن كنت أحاول أن أحصل على الهدوء كي تسـتمر حيـاة أولادي... لم تكن حياة، ولكن محاولات مُضنية للاسـتمرار في كـل دقيقـة وفي كل يوم.

(٢٥)

في كل مرة أعود بها لهذه الأوراق أرغب بالتوقف، فهي تُجبرني على تذكر ما أريد أن أنساه، ولكنني لا أستطيع أن أنسى كل ما كان يدور لسنوات من حياتي.

لا أتردد بمتابعة ما أكتب لأنه يُرهقني، ولكنني أفكر ما الذي سيشعر به ذلك الذي سيقرأ هذه السطور، لم أكتبها كي يقرأها إنسان ما، ولكن رغبة دفينة جعلتني أستمر بالكتابة، ولا أدري بعد ما الذي سأشعر به بعد أن انتهي من كتابتها، ربما عدم تكهني بذلك يجعلني أستمر إلى النهاية، رغم أنني في أوقات كثيرة أفكر بالتوقف عن الكتابة.

بصوت جاف قال لي وأنا غارقة بتدريس الأولاد:

- من الآن فصاعدًا لن تُدرسي الأولاد، لا أريد أن أراكِ جالسة، لابد أن تشتغلي طوال الوقت.

وأمام نظرات الأولاد المُتسائلة قلت بصوت متردد:

- ولكن... لابد من تدريسهم.

- سوف يدرسون لوحدهم... لا أريد أن أراكِ جالسة في الصالة بعد الآن... هيا انهضي للعمل.

بدأ الصغير بالبكاء فضممته لصدري... وقال أخوه الكبير لوالده:
- ولكن يا أبي هناك أشياء لابد أن تشرحها أمي لنا.
فصرخ بصوت غاضب:
- ولماذا أرسلك للمدرسة يا ابن الكلب، ألا تدرس هناك.. ثم كيف ترد علي؟.
وخلال ثوان كان يوجه الصفعات له، فوقفتُ مسرعة لأصد ضربات والده عنه... التفت إليّ وبدأ بضربي وشد شعري، ثم قام بضرب رأسي بالحائط.. وغاب وأحضر العصا، وبدأ بضربي في كل أنحاء جسدي وسط صراخ الأولاد الفزعة، أراد أحد الأولاد أن يخرج من البيت ليستنجد بالجيران، ورأيت والده يريد أن يضربه، فصرخت طالبة منه عدم الخروج...
امتلأت العصا بالدماء فذهب ليغسلها وعاد لضربي من جديد ولكن هذه المرة على رأسي... سمعت صرخات أولادي يطلبون مني أن أهرب، ولكنني لم أكن أستطيع أن أتحرك... انهالت الضربات على رأسي وبدأ كل شيء يدور من حولي ويتشح بالسواد، وخلال دقائق كنت قد غبت عن الوعي.

لا أدري كم من الوقت بقيت غائبة عن الوعي... ولكنني حين استيقظت كان متمددًا على الكنبة الكبيرة، وكان قد وضع الضمادات على الجروح... سألته بصوت ضعيف:

- أين الأولاد؟

- في غرفتهم.

ورغم أن الحديث كان يسبب لي آلامًا فظيعة إلا أنني قلت له:

- لقد توسلت إليك مرارًا ألا تضربني أمامهم.

- يجب أن يعتادوا على ذلك.. ثم أنني حين أغضب لابد أن أضرب.. بعدها أشعر بالارتياح.

- ولكن أولادك....

- اخرسي وانهضي لعمل الشاي.

لم أشعر بأنني كنت أمشي، بل كانت خطواتي تغوص في هاوية سحيقة لتنتقل لهاوية أخرى.. لم تكن الأشياء حولي حقيقية، بل متحركة وشاحبة كأنها شخوص ضبابية.. أمسكت بأي قطعة أثاث تقع عليها يدي لأتمكن من الوصول إلى المطبخ، فارتطمتُ بشيء دافئ كان يقف أمامي؛ لقد كان ابني الكبير حسن.. وبصوت خافت قلت له:

- أهذا أنت يا حسن... ماذا تفعل هنا يا حبيبي؟

وبصوت باكٍ أجاب:

- لقد حضّرت الشاي يا أمي، فقد سمعته يطلب منك ذلك، وأعرف بأنك لا تستطيعي أن تفعلي شيئًا بحالتك هذه.

تناول المقعد الصغير ووضعه خلفي كي أجلس، إلى أن يذهب بالشاي لوالده.. فسمعت صراخه من جديد، وقفزت من على

الكرسي خائفة من أن يضرب حسن... خوفي على ابني جعلني أنسى أوجاعي.

- يجب أن تُحضره هي أيها الغبي... خذه إلى المطبخ ودعها هي تجلبه لي.

وعدت بخطوات بطيئة لأحمل له الشاي... ارتشفه بصمت، وبعد دقائق قال بهدوء:

- والآن أريدك في غرفة النوم.

وحين غط بنوم عميق، ذهبت لأولادي... كانوا يجلسون ملتصقين ببعضهم البعض، وحين رأوني عادوا للبكاء الصامت من جديد.

- لا تبكوا يا أحبائي.

- لماذا يضربك هكذا؟ لماذا لا تهربين معك من هذا البيت؟

- وأنتم؟

- تستطيعين أن تطلبي الطلاق وأن نعيش معكِ، وأنا سوف أشتغل بأي شي.

- لقد فكرت بذلك، ولكنني لا أستطيع، ليس لعدم وجود المال فأنا مستعدة أن أعمل كخادمة كي أصرف عليكم، ولكن والدكم لديه علاقات كثيرة وأقارب لهم نفوذ يستطيعون تدميري وتدمير أهلي... ثم أنه قد أخبرني من قبل بأنني لو طلبت الطلاق لن أحلم حتى برؤيتكم، وأنا لا أستطيع أن أعيش دونكم.

- إنه وحش.

- لن أكذب عليكم وأقول لكم بأنه سيتوقف عن ضربي، والدكم قد يضربني دائمًا... أريد منكم حين يبدأ بضربي أن تذهبوا لغرفتكم ولا تغادروها، وأن تُقفلوا آذانكم... يومًا ما ستكبرون وتصبحون رجالاً وتغادرون هذا البيت، وأكون أنا قد حميتكم إلى أن تكبروا.

قال حسن بقلق:

- ولكنني أخاف أن يقتلك قبل أن نكبر ونصبح رجالاً.

ساد الصمت، ولم أعرف بما أجيبهم، لم تخرج الكلمات من فمي، ولكن الدموع كانت إجابتي الوحيدة، ولم أكن أبكي لأجل نفسي بل أبكي لأجل أولادي، وألوم نفسي مع كل دمعه لإحضارهم لهذه الحياة، وأن يكون لهذا الوحش أبناء مثلهم...

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرونه يضربني بها بهذه الطريقة الوحشية، ولأيام لم يكن يستطيع كامل الصغير أن ينام،كان يصرخ ويبكي خلال نومه، وكنت أهرع إليه لتهدئته، فينام لحين من الوقت، ثم يعود للصراخ... بعد فترة بدأ يعود للنوم الطبيعي، ولكن نظراته تغيرت وسلوكه في البيت تغير، أصبح أكثر انطواءً على نفسه، ويخاف من أي حركة مُباغتة تصدر من أي مكان في البيت.. وكنت أقف عاجزة أمام خوفه الدفين، فأنا أشعر بنفس الخوف، فكيف لي أن أساعده؟

(٢٦)

لم أعد أتذكر الأشياء بوضوح، فحتى وجه أمي كان يبدو لي بعيدًا ومشوشًا كأنها تسكن في قارة أخرى... لقد أصبحت مشاعري ونظرتي للأشياء ضبابية وغير واضحة، فأنا لا أشتاق لأمي ولا لإخوتي ولا أشتهي أي طعام ولم يعد في خيالي أي صور لأي فستان أحب ارتدائه، وحتى أدوات الزينة التي اشتريتها وقت زواجي تغيرت ألوانها وعلتها طبقة من الغبار الدبق وأصبحت رائحتها كريهة... لم يعد هناك ما يثير رغبتي بأي شيء، كل ما يربطني بالحياة هو أولادي وحياتهم في المدرسة، فلم تكن لهم حياة في البيت، كانوا بمجرد عودتهم من المدرسة يذهبون لغرفتهم ويدرسون بصمت، وكأننا نحيا بجنازة لا يُدفن ميتُها أبدا.

أتى الشتاء باردًا وقاسيًا، وكان علي وفي كل شتاء أن أُزيل الثلج الذي يتراكم على السطح في كل شتاء، ويجلس هو أمام التلفاز يشرب الشاي بهدوء.. ولم أكن أريد سوى هذا الهدوء وأن أمر بحياته كشبح غير مرئي.

عزائي الوحيد الذي أرسله لي الله هو تفوق أولادي، فكلما رأيت شهادتهم وتفوقهم؛ نسيت الألم والدماء والدموع، وأبكي دموعًا

بطعم عذب، أعرف طعم دموع الفرح العذبة مرة واحدة في السنة ثم تجف عيناي إلا من بعض دموع الألم والحزن، فأنا لم أعد أستطيع أن أبكي كالسابق... حتى حين يضربني كنت أشعر بأن جسدي يتخدر ولم أعد أبكي، كنت أصمت إلى أن تنتهي نوبة الغضب التي تنتابه ويعود ليرتمي على مقعده أو ينادي في غرفة النوم لأؤدي واجبي الشرعي بصمت.

ومع مرور الوقت أدركت أن حرية الإنسان تكمن في امتلاكه للقرار بحياته، أو أن يُدرك بأنه لا أمل له في الحرية فلا يُطالب بشيء، ففي كلتا الحالتين تتحرر روحه من قيودها... وأنا حررت روحي الأسيرة بأنني لم أعد أريد شيئًا سوى أن أرى أولادي شبابًا، حتى ولو مت قبل أو بعد ذلك، لم يعد لذلك أهمية.

ليال طويلة تمضي ولا أعرف النوم، وإذا رآني جالسة يطلب مني أن أذهب لأعمل أي شيء، أو أن أُخيط أو أُصلح أي شيء... الساعات الطويلة كانت تمضي ولا أعرف النوم لوجود عمل لابد أن أُنهيه قبل أن يستيقظ، أو لأنني لم أعد أعرف ما هو النوم فالكوابيس تحاصرني والقلق والتعب لا يدعان لي أي فرصة للنوم... أصبح لوني أصفر وشاحب ودوائر سود غامقة تحيط بعيناي وأربط حزام حول ملابسي كي لا تقع فلم يعد لدي جسد

يملأ ملابسي التي بدت واسعة ومُهلهلة... وفي كل مرة يقضي حاجته من جسدي لا ينسى أن يقول لي بصوت هامس:

- وكأنني أحتضن عصا... أنتِ بالفعل قبيحة.

في البداية كنت أبكي بحرقة حين يقول لي ذلك لأنني كنت لا أزال أشعر بأنني أنثى، ولكنني بعد ذلك نسيت أنني أُنثى ولم أعد أرغب بأن أكون أنثى لهذا الرجل، أريد أن أكون أي مخلوق عدا عن كوني أنثاه.. يستطيع أن يتصرف بجسدي كما يريد، ولكنه لم يستطيع ولن يستطيع أن يمتلك قلبي أو روحي... ورغم رغبة المرأة بأن تكون موضع إغراء لزوجها إلا أنها وبقرار بسيط منها يمكنها أن تسلخ روحها عن جسدها فتُعطي الجسد وتمنع الروح، وأنا احتفظت بحقي الوحيد بهذا البيت،أن أحتفظ بروحي ولا أُسلمها له... وفي كل مرة يأخذ حقه أُعطيه جثة هامدة لا قلب ينبض، وأشعر بلذة الانتقام لأنني أدرك؛ ودون أن يعترف؛ بأنه وفي كل مرة مهما أخذ منى يعود دائمًا خاويًا وتعيسًا.

كنت أدرك وفي كل دقيقة بأنني أحيا عبودية مُغلفة بإطار الزواج، وأنني بكوني زوجته أضفت الشرعية المُطلقة للعبودية التي يُمارسها علي... وفي كل زواج حين تصبح العلاقة علاقة إجبار وإكراه واحتقار تتحول إلى عقد قانوني للعبودية وحتى القانون لا يستطيع أن يُجرم هذه العبودية القائمة ببعض البيوت في جميع أصقاع الأرض.

ولكن هناك نوع آخر من العبودية أسوأ من عبودية الجسد التي يمارسها علي زوجي؛ هناك عبودية الروح؛ أن تقتنع المرأة بأنها لا تستطيع أن تحيا دون هذا الرجل؛ رغم كل الألم والإهانة، وأن يقتنع الرجل بأنه لا حياة له دون هذه المرأة التي تُهين رجولته في كل صباح ومساء بالقول أو بالتصرف...

ولقد استسلمت لعبودية الجسد لأجل أولادي ولكنني لم ولن أقبل بعبودية الروح... كنت أعرف بأنني على استعداد للخروج من هذا البيت وأن أنظف الشوارع على أن أبقى بجواره، ولكن الحياة كلها ليست سوى قائمة أولويات، وأنا لم تعد لدي قائمة، فلا يوجد على ورقة قائمتي إلا أسماء أولادي الثلاثة حسن ومنصور وكامل وتنتهي بعدهم القائمة...

لم أكن أعرف بأنني يمكن أن أنسى ذاتي إلا حين أنجبت، وأعتقد بأن كل امرأة لن تستطيع أن تكتشف مدى عمق أمومتها إلا بعد الإنجاب... هناك من يستطعن أن يضعن الأولاد في المرتبة الثانية أو الثالثة أو الأخيرة من قائمتهن، وهناك من تُبقين الأولاد في المرتبة الأولى، ولكن بحالتي كان أولادي في المرتبة الأولى والأخيرة، لأنني وببساطة لا أستطيع أن أدير ظهري وأنسى أو أتناسي بأنني أنجبت ثلاثة أرواح لهذه الحياة.

(٢٧)

- قولي إنك تحبينني.

لم أصدق أذناي، ربما نسيت الآلام التي عانيتها معه، ولكنني لا أنسى هذا الطلب... ولأول مرة منذ زواجنا نظرت إلى عينيه مباشرة، وبنظرة خاطفة ومتشككة...

لم أستطع أن أرد عليه، فعاد يقول لي وبإصرار أشد:

- قلتُ لك قولي إنك تحبينني.

وفي دقيقة خاطفة مرت أمام ناظري حياتي منذ البداية بتفاصيلها ووجدت أن كل ما مررت به بحياتي معه لا يعادل هذه الكلمة... لم أكن أستطيع أن أمنحه إياها، ولم أستطع أن أقول له كيف لي أن أحبك؟

ساد الصمت، ولم أتحرك من مكاني، وكنت بانتظار أن ينهال بالضرب علي، ولكنه أشاح بوجهه بعيدًا عني... ورغم كرهي له؛ إلا أنني شعرت بالشفقة عليه لأنه يستجدي حبًا وأنا لا أستطيع أن أُعطيه هذا الحب... لم أستطع النهوض من بين أنقاضي والتربيت على كتفه واحتضانه، فليس المسافات التي تفصلنا، بل الدمار الذي ألحقه بروحي وجسدي، فلم يتبق له سوى زوجة بجثة تتحرك بصعوبة.

ولم يعد الصمت خيارًا أفرضه على نفسي، بل أصبح صمتي إجباريًا يفرضه علي جسدي... وحين نظرت إليه جالسًا وحيدًا لم أكن ضحيته الوحيدة، وأنه هو الضحية الأولى لذاته المُتجبرة.

منذ ذلك الموقف لم يكف عن التحديق بي ومراقبتي، شعرت بخوف شديد لنظراته الصامتة تلك، وازداد خوفي لأنه لم يضربني منذ أيام، فلم أعد أفهم ماذا يريد الآن... وبدا لي أن الألم الجسدي أقل حدة من الذعر الذي ينتابنا قبل أن يأتي الألم.

حل الظلام على البيت، وناداني لغرفة النوم، وكالعادة خضعت لما يريد، ولكنه قال فجأة:

- الآن... أريدك أن تقولي لي أنت حبيبي.

لم تخرج الكلمات من فمي وتجمدتُ مكاني، فأمسك بشعري بعنف:

- قولي، هيا...

وبصوت مرتعش قلت:

- لا.. أس..ت..طيع..

شد شعري وضرب رأسي بالحائط مرة ومرتين وثلاث إلى أن نزفت الدماء على وجهي، وبدأ بتوجيه لكمات قوية في كل أنحاء جسدي، وأخرج العصا من تحت السرير وبدأ يضربني بصورة جنونية... توقفت عن الصراخ ولم أعد أشعر بأعضائي، وكل ما سمعته كان بقايا كلماته: - أيتها القذرة...

لا أدري كم من الوقت مرّ قبل أن أعود للوعي، وحين فتحت عيناي رأيت الدماء مُتناثرة في كل مكان، وسمعت أولادي يصرخون وسمعته صوته يطلب منهم العودة لغرفتهم وإلا سيضربهم كما ضربني... وبدأ من جديد يعالج جروحي النازفة... وبعد أن انتهى تركني وذهب ليشاهد التلفاز.

مكثت صامتة لا أدري كم من الوقت... وقررت أن ينتهي كل شيء الليلة... وحين حل السكون والظلام على البيت كنت أريد أن أرحل من كل هذا العالم الذي لا مكان لي به... تناولت علبتين من الحبوب ودون أن أفكر مرتين بلعت كل ما بهما، وتمددت بصمت على الكنبة انتظارًا للموت.

لا أعرف ما الذي حدث، ولكني استيقظت ووجدت نفسي في مستشفى وأنابيب كثيرة مشبوكة بيدي... نظرت حولي ووجدت أولادي حولي، وبعد لحظات من التفكير عادت ذاكرتي لي؛ كان يجب أن أكون ميتة... شعرت بألم لأنني لا أزال على قيد الحياة، وشعرت بشوق لأولادي، فناديتهم لأحتضنهم وأبكي دون توقف.

وبعد فترة من الهدوء ودون أن أسأل عن والدهم قال لي:

- لقد ذهب لإحضار شيء ما... لقد أراد الطبيب أن يحول ملفك للشرطة بسبب الجروح والكدمات التي بجسدك، ولكن والدي وعلاقاته منعته من ذلك.

قال ابني الصغير بصوت باكٍ:

- لماذا تريدين أن تموتي وتتركينا؟

- لا أدري ما الذي حدث يا حبيبي... إنه الشيطان.

- لقد قلت لنا بأن من ينتحر لا يدخل الجنة، فكيف تفعلين هذا؟

- أجل...

وبصعوبة لملمت كلماتي وأجبته:

- استغفر الله العظيم.. أعدك بأنني لن أفعل هذا مرة أخرى.

بقيت يومين في المستشفى، وكانت تلك المرة الأولى التي أعرف الراحة فيها منذ زواجي.

(٢٨)

طرقات خفيفة على الباب.. وحين رفعت رأسي لأرى من القادم، وجدت أمي تقف أمامي، نظرتْ لي ولم تتمالك نفسها، فشهقت قائلة:

- ما هذا؟ من الذي فعل بكِ هذا؟ إنه زوجك، أليس كذلك؟ تبدين مثل الشبح... ما هذه الجروح؟....

وقبل أن تُكمل كلامها؛ حضر زوجي، وقال بلهجة حادة:

- هذه زوجتي، وأتصرف معها كما يحلو لي.

- ولكنها ليست سجينة عندك، لا يحق لك أن تتصرف معها بهذه الصورة الفظيعة.

- وهل سوف تمنعينني؟

- أجل، سوف أشتكي عليك لدى الشرطة.

أجابها بهدوء وبلهجة تهديد:

- اذهبي واشتكي.. سوف يتم طرد ابنك من الجامعة، وابنتك هذه لن ترى أولادها طوال حياتها... كما أنني سأرفع قضية شرف ضدها لأطعن بأخلاقها، ولن أتعب بإيجاد الأدلة.

طلبت مني أمي أن أُحضر ملابسي وأغادر معها، فوقفت جامدة مكاني وقلت بهدوء:

- لا أستطيع ترك أولادي... سوف يؤذيهم.

- ولكنه سيقتلك يا ابنتي... هيا تعالي معي.

- فليقتلني، فلا حياة لي دون أولادي، لن أتخلى عنهم... اذهبي يا أمي وانسي أمري، هذا قدري... أرجوكِ اذهبي.

خرجت أمي باكية وصارخة بالدعاء عليه:

- لا بارك الله فيك... الله ينتقم منك أيها الوحش اللئيم.

وكانت تلك آخر زيارة تقوم بها أمي لي.

خرجت وساد الصمت، كنت أريد أن ألحق بها وأقول لها انقذيني، ولكن قدماي انغرزتا في الأرض.. غلف الصمت المكان رغم أصوات أولادي الصاخبة.

أحيانًا يغرق البيت بالهدوء، خصوصًا بعد خروج أولادي إلى المدرسة، وكي أتجنب نظراته العدائية لي؛ أمكث طويلاً في المطبخ، أُعيد تنظيف ما تم تنظيفه، وأغسل من جديد ما تم غسله.. المطبخ هو المكان الوحيد الذي لا يلاحقني به بنظراته، ولا يحب أن يدخل إليه... لم يكن مطبخًا، بل ملجأ لي من التعب ومن الخوف.

أراقبه من بعيد، وكالمعتاد يجلس أمام التلفاز، ثم ينهض ويتكلم من نفسه بكلمات لا أفهمها، ثم يعود للجلوس، ثم أشعر بنظراته

تخترق جسدي... ويعود السؤال الصعب من جديد: ماذا أفعل مع هذا الرجل؟ لماذا أنا هنا، وإلى متى؟
لقد عشت معه عشر سنوات، وعشت مع أهلي ثمانية عشر سنة، فكم ستبقى لي من السنوات للحياة معه ؟

لم أعد أقلق من ضربه، لي فقد تخدر جسدي، ولم أعد أبالي بكل ذلك العنف الجسدي والنفسي، ولكن ما يُقلقني حقًا هو الوقت الذي يجمعني به،الدقائق الصفراء التي تسبب لي الغثيان،فوجودي كله معه رحلة في قارب تتقاذفه الأمواج، وأشعر بالغثيان منذ اللحظة التي صعدت بها إلى هذا القارب الضائع.

لم يعد يبحث عن الأسباب لضربي، فما أن تملكه تلك الرغبة يقترب مني ويشدني من شعري ويستمر بضربي إلى أن يقول: لقد ارتحت الآن... لشدة الضرب والألم أُصبت بخرس مؤقت، فحين أصرخ يخرج الصوت صامتًا، وتخرج حشرجات مخنوقة، ويبدأ الخدر يسري بأوصالي... حين ينتهي يتمدد على الكنبة الكبيرة، ويقول لي دون أن ينظر لي:
- الآن ارتحت.

أزحف من جديد لأي مكان كي أضم أشلاء جسدي الذي لا أشعر به ويأتي من جديد ليُضمد جراحي ويطالب بحقه الشرعي.

تمر أيام طويلة لا أنظر خلالها إلى المرآة، وحين أنظر إليها يُصيبني الفزع لما أراه... شعري أصبح خفيفًا ومتناثرًا، وكلما مررت المشط من خلاله تساقطت خصلات كبيرة منه، فأصبحت أمشط شعري دون النظر للمرآة، ودون النظر للشعر الذي يتساقط مني.

لم يعد لكل هذا أهمية... كل ما أردته هو أن يتوقف ألم الرأس الذي ينتابني، أصبحت الشقيقة تلازمني ويكاد ألمها يهشم رأسي، وحين يأتي الألم لا أستطيع أن أتحدث أو أن أتحرك، ولكنني أُجبر نفسي على العمل كي لا يجد مبررًا إضافيًا لضربي.

وفي كل ليلة أستجمع القوة الضعيفة المُتبقية في جسدي وروحي، وأتحدث مع أولادي، وأكرر نفس الكلمات:

- أنا هنا لأجلكم، أرجوكم اهتموا بدراستكم، أنا ووالدكم محطة في حياتكم وسوف تمضون قدمًا إلى حياة أفضل إن شاء الله.

كنت أردد تلك الكلمات وأنا أفكر بها أحيانًا، وأحيانًا دون التفكير بها، كأنني آله تمت برمجتها لقول تلك الكلمات... ولكني كنت أقولها لنفسي أيضًا، وأدعو الله أن تكون حياتهم أفضل من حياتي.. ولكن كان يجب أن تُحفر عميقًا في عقولهم وأن تكون قوة تلك الكلمات أشد صلابة من صورتي وصورة والدهم، وأنا لم أعد أمتلك سوى هذه الكلمات وهذه الدقائق القليلة من الهدوء، كانت تلك الكلمات القليلة هي أمومتي التي أسترقها منه وأمنحها إليهم عبر أمل بعيد، ولو للحظات.

(٢٩)

نظرت إليّ الدكتورة بشك، وقالت:

- ما كل هذه الرضوض؟

- لقد وقعت.

- هل تسخرين مني؟.. أعتقد أنه زوجك، لدي خبرة بهذا المجال وتأتي نساء كثيرات مثلك يُضربن من قبل أزوجهن، ولكن حالتك هذه تبدو خطيرة.

ساد الصمت، ولم أستطع أن أنظر إليها... تابعتْ بحزم:

- اسمعي... أستطيع أن أزج بزوجك لسنوات في السجن مما أراه فقط، هذا عدا عن نتائج التحاليل التي بيدي... لقد وجه لكِ زوجك طعنات عنيفة في الكليتين، وهو سبب نزول الدماء في البول لديك.

صمتتْ للحظات، ثم تابعت بصوت حذر:

- يوجد شيء آخر لا أدري كيف أُخبرك به...

نظرت إليها وفهمت أنني لا أريد الحديث فتابعت قائلة:

- حسنًا... لقد أُجريتُ لكِ فحوصات للهرمونات ولا توجد بجسدك هرمونات أنثوية، ولهذا السبب أعتقد أنه لا يوجد لديكِ

دورة شهرية، وكذلك يكاد صدرك أن يتلاشى... أي أنك تكادين تفقدين حتى جنسك كأنثى.

هززتُ رأسي بصمت فعادت تقول بغضب:

- أنتِ لا تهتمين.. أليس كذلك؟ تُضحين بنفسك لأجل أولادك.. ولكنك ستعودين في المرة القادمة جثة هامدة. أريد فعلاً أن يذهب زوجك للسجن.

- ولكنه سوف يؤذيكِ، وقد يتم طردك من عملك.

- لا تخافي.. لقد أتى لهنا أشخاص مثل زوجك يعتقدون أن العالم كله تحت أُمرتهم، وانتهوا إلى الطلاق أو إلى السجن.. فقط قرري وسوف أساعدك.

- لقد قررتُ منذ أن أنجبت..لن أترك أولادي، ولن أزج بوالدهم في السجن.. هذه حياتي، ولتمضي حيث تشاء.

وبغضب أخذت ملفي الطبي وخرجت من الغرفة وسمعت صوتها الحاد وهي تتحدث إلى زوجي... غاب قليلاً وعاد بصحبة طبيب آخر همس بأذنها ببعض الكلمات، فانسحبتْ بصمت.

ساد الهدوء ليومين في البيت؛ ربما لأنه عرف بأنني رفضت أن أقدم شكوى ضده... وبعد أيام عاد لضربي من جديد، ولكنه ولأول مرة قام بضرب الأولاد معي.. بدأت ألقي بجسدي على أولادي كي أحميهم من ضرباته، وكانوا يصرخون لشدة الألم، وأنا لا تخرج

الصرخات من فمي... توقف فجأة، وطلب منهم الابتعاد عني، ثم ناولهم خراطيم المياه وقال لهم:

- الآن، أريد أن تضربوها، فهي تستحق ذلك، لقد دمرت حياتي وسوف تدمركم... هيا اضربوها.

نظرتُ إلى أولادي ورأيت الفزع يملأ وجوههم، فصرخت بوجهه:

- لماذا تفعل هذا بهم؟.. اضربني أنا واتركهم.

- اخرسي أيتها العاهرة... هيا اضربوها وإلا...

لم يتحركوا، فبدأ بضربهم، إلى أن بدأوا فعلاً بضربي وهم يبكون.

وحين انتهى كل شيء ساد الصمت، وآخر ما سمعته كان بكاؤهم.. ورأيت ابني الصغير كامل ينحني أمامي ويقول:

- أمي.. يجب أن تهربي.

(٣٠)

لم أعد أستطيع أن أقول لأولادي تلك الكلمات التي اعتدت على قولها لهم قبل النوم، لقد أصبح يطلب منهم أن يضربونني في كل مرة بعد أن يضربني... لم يعد هناك أي كلمات بيننا، ليس لأنهم ينفذون أوامره، ولكن لأن ما تم كسره لا يُمكن إصلاحه... لقد انطفأ كل أمل بعيونهم.

وقف أمامي ابني الكبير حسن قائلاً:

- أمي يجب أن تغادري هذا البيت، سوف يقتلك أبي.

نظرت إليه دون أن أراه، ولأول مرة أفكر بأن أترك البيت، ليس لأن أولادي يطلبون ذلك، ولكن لأن الأذى الذي يحصل لهم بضربي أصبح أكبر من الأذى الذي يحدث لهم حين يضربني هو... ولكن شيء غريب بدأ يجول بصدري، وهو أنني خائفة من العالم الخارجي... أين سأذهب وماذا سأفعل بحياتي، فمنذ أن خرجت من بيت أهلي خرجت معه، ولا أعرف أحدًا في هذا العالم سواه وأهلي الذين أخاف أن يؤذيهم إن هربتُ من هذا البيت.

تكلم حسن كثيرًا، ولم أستمع لأي من كلماته، كأنها كلمات آتية من عالم بعيد وغريب، وكنت أنا في عالم أحاول أن أتخيل من

خلال ضبابيته نفسي هاربة وتاركة كل شيء خلفي، ولم أستطع أن أستجمع تلك الصورة التي أرى نفسي بها تاركة كل شيء خلفي. وكان ذلك أصعب ما في كل حياتي، أن التقط تلك الصورة، وأن تتكرر، ولكنها بعيدة ومُشتتة وكأن روحي تقمصت هذا البيت وتأبى أن تغادره، حتى ولو غادره جسدي.

قال لي منصور بصوت خافت:

- حين يطلب منا والدي أن نضربك ويكون في غرفة أخرى سوف نضرب أي شيء كي يعتقد أنا نضربك ويجب أن تصرخي.

وقف في وسط الغرفة ونادى الأولاد:

- لقد تعبت من ضربها... يجب أن تتابعوا.

وغادر لغرفة النوم...

بدأ الأولاد بالضرب على الكرسي الكبير، وكان علي أن أفتعل الصراخ كي يعتقد بأنهم يقومون بضربي... وفجأة ظهر أمامهم وشاهد ما يفعلون فأمسك بالعصا وانهال بالضرب عليّ وعليهم كوحش كاسر... امتلأ البيت بالصراخ والبكاء...

سمعت طرقات عنيفة على باب البيت ولكنه لم يرد وتوقف عن الضرب، كان يعرف بأنه أحد الجيران سمع الصراخ فأتى للنجدة أو للمساعدة... وقال بحقد:

- المرة القادمة سوف أربطها وتضربوها أمامي.

وهو ما حدث في المرة التالية... أمسك بي بعنف وربطني بالمقعد بحبل سميك وانهال علي بالضرب، ونادى الأولاد ليتابعوا ضربي وهو جالس ينظر إلينا...

في تلك اللحظة فقط التقطت صورتي وأنا أهرب من البيت... في تلك اللحظة كنت أرى أولادي يضربونني بقوة كما يأمرهم، ورأيت روحي تهرب من هذا الجحيم؛ يلحق بها جسدي، وأدركت أن الوقت قد حان لأرحل..فوجودي أصبح خطرًا عليهم.

فك الحبال التي أحاطت بي، ومسح الدماء التي كانت تسيل على جسدي ووجهي، ومددني على السرير ليداوي جروحي العميقة وأنا لم أعد موجودة في ذلك البيت... وما أن ذهب إلى الحمام استجمعت قواي وأخذت حذائي وهويتي وذهبت لغرفة الأولاد الذين كانوا يبكون، وقلت بصوت هامس:

- تابعوا البكاء... سوف أهرب الآن... لا أريد أن يشعر بأنني قد غادرت البيت.

قال الصغير بصوت متردد:

- لا أصدقك.

- بلى يا حبيبي... لابد أن أودعكم.

طبعتُ قبلاتي الدامية على وجوههم الباكية، ووقفتُ أمام الباب لا أصدق بأنني سوف أتجاوزه... لثوانٍ قليلة كنت أفكر بالعودة

والبكاء بأحضان أولادي، وأن أقول لهم بأنني لن أتركهم حتى ولو مت، ولكن روحي كانت قد سبقتني، وكانت تلك العتبة البيضاء هل الفاصل الأخير بين عالمه والعالم الخارجي.

لفحتْ النسمات الباردة وجهي، ومشيتُ وظهري منحني لشدة الألم على أمل أن أجد سيارة أجرة تقلني أو أي فاعل خير...

كان جسدي يتمزق من الألم، وظهري يكاد يتفتت عند كل حركة، وما أن رآني سائق سيارة الأجرة حتى توقف قبل أن أُشير له بالوقوف... نظر لي من خلال النافذة وقال:

- يا أختي.. هل أستطيع أن أساعدك؟ تكادي أن تقعين على الأرض.

وقبل أن أُجيب، وحين نظر إلى وجهي؛ نزل مسرعًا وعاونني على الصعود للسيارة... وحين وجدت نفسي في السيارة، في تلك اللحظة فقط بدأت الدموع تنحدر على وجهي دون توقف.. وكان يراقبني السائق بصمت، ثم قال لي:

- سوف آخذك للمستشفى.

- أريد أن أذهب لأهلي.

- سوف تعطيني رقم أهلك وأتصل بهم، ولكن الآن لابد أن تذهبي إلى المستشفى.

لم أرد عليه، فلم لم تكن لدي أي قدرة على الحديث وأي إنسان على الأرض، كان يمكنه أن يأخذني إلى أي مكان دون أي مقاومة مني.

(٣١)

ما أن رآني الطبيب حتى صرخ قائلاً:

- فورًا إلى العناية المركزة... تكاد أن تموت.

وكان جسدي متورمًا، وألم فظيع في أُذناي، ودماء في البول، وبقع سوداء انتشرت في كل مكان من ساقاي، وجروح في رأسي... بعد ساعات لم أشعر خلالها بما يدور حولي؛ فتحت عيناي لأجد أمي باكية بجانبي.. قالت لي بصوت خافت:

- الحمد لله أنكِ هربت.. لقد أخبرنا الطبيب بأنك لو بقيتِ لمتِّ، لأن جسدك لم يعد يحتمل كل هذا العنف.

طرقات خفيفة على الباب، ألتفتُ لأرى بصعوبة القادم، فإذا هي أختي، وحين نظرت إلى وجهي وجسدي شهقت وفقدت الوعي... أسرعت أمي تنادي الطبيب... وحين عادت لوعيها بدأت تبكي دون توقف...

- لابد أن يذهب هذا المجرم إلى السجن.. لابد أن تقدمي شكوى ضده.

- وأولادي كيف سيعيشون دون والدهم؟

- أنتِ مجنونة... سوف يقتلهم هم أيضًا.

ساد الصمت، وكان لابد أن آخذ قرار نهائي بشأنه، فقلت بصوت ضعيف: اتركوني أرتاح قليلاً ثم أخبركم بقراري.

مكثت خمسة أيام في المستشفى أكاد لا أستيقظ، وإن استيقظت أطلب الطعام وكأنني لم آكل منذ دهر... وحين استعدتُ شيئًا من قواي كان لابد أن أقرر.

وقفت أمي أمامي، وقالت بصوت متوتر:

- زوجك في الخارج.. يريد الحديث معك.

فصرختُ فزعة:

- لا...لا... أخاف أن يقتلني.

- لا تخافي... جميعنا هنا معكِ.

اقترب وابتسامه صفراء ترتسم على وجهه:

- فكري مليًا... البيت بيتك، وأولادك بحاجة لك، وأعدك بألا أضربك مرة أخرى.

اقترب مني يريد أن يُمسك يدي، وبحركة لا شعورية وضعتُ يدي على وجهي كأنني أريد أن أحمي نفسي من ضرباته... فصرخ أخي بوجهه قائلاً:

- ابتعد عنها، ألا ترى أنك تُرعبها.

- لا أريد أن أرجع معك... أريد الطلاق.

- ولكن سوف آخذ الأولاد.

- خذهم، فلم يعد لي حياة معك.

- هل سوف تقدمين شكوى ضدي؟

فهمت في تلك اللحظة لماذا تظاهر بذلك اللطف، ولم أعد أستطيع الرد عليه، بدأت بالبكاء بشكل هستيري، فنهض أخي ليطلب منه أن يخرج من الغرفة.. وفي الخارج سمعت أخي يقول له:

- سوف تقدم شكوى ضدك بالشروع في القتل.

- وأنا سوف أطعن بشرفها وأقول بأنني ضربتها لأنني وجدتها مع رجل غريب في بيتي.

- وهل تقبل أن تلوث شرف أم أولادك ظلمًا وبهتانًا؟

- أنت قد تضطرني لذلك.

فصرخت من جديد أنادي أخي...

- أرجوك.. لا أريد أن أقدم أي شكاوى، أريد أن يخرج من حياتي، لا أريد أن أراه... أتوسل إليك.

فدخل إلى الغرفة قائلاً:

- هذا عين العقل.. لا شكاوى ولا مشاكل.

- ولكن لدي شرط... الطلاق

صمت قليلاً فصرخت بوجهه:

- طلقني الآن وإلا قدمت الشكوى فورًا، فنذهب أنا وأنت إلى السجن.

وقف فترة من الوقت صامتًا ينظر لي وينظر لأخي، وقال بهدوء:

- وأولادك؟ يجب أن تعلمي أنني إذا طلقتك لن أسمح لكِ برؤيتهم، لأنكِ بالتأكيد سوف تُسممين أفكارهم تجاهي.

تدخل أخي قائلاً:

- لا يحق لك أن تمنعها من رؤية أولادها.

فقاطعتُه قائلة:

- انتظر، لقد وصلت لمرحلة معه بأن أولادي سوف يكونون بوضع أفضل بدوني، أصبحتُ عبئًا عليهم ولست سندًا لهم.. لقد جعلهم يضربونني وقتل فيهم كل شيء جميل، لم أعد أستطيع أن أقدم شيئًا لهم... ثم ماذا تريد مني وأنت تعتبرني سبب تعاستك في الحياة... هيا تخلص مني.

- حسنًا... أنتِ طالق.

- أريد أن أسمعها ثلاث مرات.

- أنتِ طالق.. طالق.. طالق.

لم أدرك بأي يوم من وجودي ما للكلمات من أثر على حياتنا... كلمة واحدة جعلتني أسترد حياتي (أنتِ طالق)، كنت أسمع دائمًا بأن المرأة تتألم حين تسمع هذه الكلمة حتى ولو لم تكن تحب زوجها، لكنني شعرت بأن قيودًا حديدية قد زالت بمجرد أن سمعت تلك الكلمة... ولأول مرة منذ زواجي به كنت أرغب بأن تقترب أنفاسي من أنفاسه كي أسمعها وأشعر بها وتخترق كل خلية من خلايا جسدي.

(٣٢)

سنوات عديدة مرت منذ أن وقع الطلاق... لم تمر ليلة منذ أن غادرت ذلك المنزل دون أن أتذكر كل ما مرّ بي... لسنوات عديدة لم أستطع التغلب على خوفي ودموعي وآلامي، فلا تزال آثار الجروح محفورة بجسدي وعلى شفاهي، وكأنني كنت في حرب وعدت منها مشوهه الجسد ومبتورة الروح..

وكان أصعب ما في حياتي هو الذكريات التي كانت تهاجمني في أي لحظة من الليل، فأجلس في سريري أفكر بأولادي اللذين لم أرهم منذ سنوات ولا أعرف عنهم إلا القليل، كنت أخاف أن أسأل عنهم فيؤذيهم، أو يحاول قتلي من جديد.

لقد غادرت ذلك البيت... ولكن الخوف بقي لسنوات يقبع بصدري.. صرخات حادة في الليل، كوابيس، دموع صامتة، وجسد يرفض أن يتعافى من كل تلك الجروح... وأدركت أن جلودنا لها ذاكرة لا تنسى، وأنني في كل موضع من جسدي أتذكر الضربات والجروح والألم... ورغم كل تلك الذاكرة اليقظة إلا أنني نسيت ملامح وجهه، حين يسألني أحد ما عن ملامحه أرد باستغراب:

- لا أتذكر.

لقد تعافى جسدي من الجروح خلال أشهر، ولكن روحي لم تتعافى إلا بعد مرور سنوات طويلة، ولم تتعافى إلا حين تغلبت على الخوف...

بعد كل ما مرّ بي، وبعد كتابتي لما حدث؛ أدرك الآن أن العدو الأول لأي إنسان ليس الآخر، بل خوفه من الآخر، وخوفه من التغيير والرفض، وخوفه من الحياة التي تدفعنا بكل يوم لتغيير ورفض الظلم... فالأشجار تنمو حتى ولو وضعنا لها قضبانًا، تتسلل أغصانها من خلال القضبان لتجد لها مكانًا تحت الشمس، وأي حشرة في هذا الكون بمجرد أن نحبسها تبقى تسعى جاهدة لأن تتحرر حتى ولو كلفها ذلك حياتها القصيرة، والغيوم تُمطر حين لا تعود تستطيع أن تحمل قطرات الماء، وفسيلة النبات الضعيفة تشق القشرة السميكة وتنمو لتأخذ حقها من الحياة فوق سطح الأرض...

أدرك الآن بأن الله تعالى خلق هذا الكون حرًا طليقًا، وأن كل ما به من كائنات تسعى لهذه الحرية وترفض الذل والعبودية، إلا الإنسان فهو يرضى هذا الذل إذا جعل من الخوف بيتًا لروحه وفراشًا لعقله...

الآن فقط أعرف العدو الحقيقي لنفسي وللآخرين، وحين أتحدث عن كل ما مرّ بي لابد أن أقول لمن أتحدث معه لا تخاف من القساة والظلمة، ولكن احذر من خوفك وثق بأن الله تعالى خلقك حرًا.

كان بيني وبين حريتي عتبة بيت صغيرة، وحين تجاوزتها وجدت أن خوفي كان أكبر من ذلك البيت الذي تركته خلفي وأشد قسوة وظلمًا من ذلك الإنسان الذي عذبني... بعد سنوات طويلة من المعاناة استرددت ثقتي بالله وأنه معي، ولكنني لم أكن أعرف الطريق إليه؛ لم تكن الصلاة فقط ولكن المعرفة العميقة بأن الله لا يقبل لعبادة الظلم وأنه خلق في كل منا نفس أبية ترفض الظلم وتجعلها الثقة بالله أقوى من الخوف ومن العبودية.

حين هزمت خوفي... وقفت وطرقت باب البيت الذي يوجد به أولادي، ولأول مرة منذ أن دخل لحياتي نظرت مباشرةً لعيونه المُطفأة، وقلت له بثقة:

- الآن... أريد أن أرى أولادي.

- سوف أمنعك... لقد حذرتك.

قاطعته قائلة:

- إن لم تسمح لي برؤيتهم بالتفاهم سوف أقابلهم عن طريق الشرطة ولن يمنعني أحد.. لم أعد أخاف منك ولا من أحد غيرك.. ثم إن أولادي كبروا، فحتى لو لم تدعني أراهم سوف يأتون هم لي.

تفاجأت حين رأيته يتراجع ويقول لي:

- حسنًا...

كل ذلك العذاب وكل تلك السنوات من الألم والمعاناة لم تكن سوى بسبب خوفي وضعفي... يبدو الآن أمامي إنسانًا ضعيفًا عاديًا مثل أي رجل يمشي بالشارع.

وقفوا أمامي، وقد أصبحوا شبابًا أقوياء... جلسنا معًا وتحدثنا، وأخبروني بأنهم لم ينسوني للحظة واحدة، وأنهم يتذكرون كل شيء... ورأيت ذلك الخوف الذي كان يقبع بنفسي يحتل مساحة وجودهم... فكان لابد أن أبدأ الرحلة من جديد، لابد أن أقتل الخوف في صدور أولادي مثلما قتلته في صدري، وان يدركوا بأن والدهم ليس سوى إنسان ضعيف، وأن الخوف هو الذي جعل منه ماردًا جبارًا.

والآن وبعد كل هذه الزمن الطويل عاد أولادي لي... ولا أزال أقتل ذلك الخوف في كل يوم، ولابد أن تنتصر الثقة بالله، وأن الحياة لا يمكن أن تستمر مع القهر والكره والحقد...
الآن فقط استرددت حياتي وحياة أولادي ...

أما من كان زوجي... فبعد أن كنت أحقد عليه، أصبحت أُشفق عليه وأطلب من أولادي أن يكونوا رحماء معه، فإن أتعس من بهذا الكون هو من ظلم الآخرين، لأنه لم يظلمهم هم فقط لكنه ظلم نفسه وقتل كل شيء جميل بها...

لقد تلاشى خوفي منه، والغريب أن حقدي عليه قد تلاشى مع ذلك الخوف، فلا يمكن أن يحيا الحقد في نفس تحررت من الخوف.

الآن فقط وفي كل يوم وقبل أن أنام أعود للوراء، ليس لأبكي، ولكن لأشعر في كل ليلة بطعم الانتصار على الخوف وعلى الذات الضعيفة التي تريد أن تسكن في نفس كل منا... الآن وفي كل دقيقة من وجودي أريد نفسًا قويةً لي ولأولادي ولكل من يقع تحت الظلم بهذه الحياة، لقد خلق الله في ذواتنا غريزة العدالة أو بالأحرى حاسة العدالة لأنها تتغلغل بكل ذرة من وجودنا،فنحن نُقيم الآخرين وذواتنا والحياة بأكملها على أساس العدالة... فلماذا نشُل هذه الحاسة حين يتعلق الأمر بحياتنا الخاصة، ونسلم هذه الحياة بسهولة لمن يعيش معنا تحت مسميات العقود والروابط الأسرية... كل علاقة وكل عقد لابد أن يكون شرطها وهدفها العدالة وإلا تحولت العلاقات إلى سجون تعذيب...

سنوات طويلة مرت وأنا أعالج أولادي من الخوف وأُعيد لهم حاسة العدالة التي كانت مشلولة بأفكارهم وأجسادهم، والآن فقط أرى إنسانيتهم تعود من جديد دون حقد أو كره... الآن فقط يبدون مستعدين للسير في طريق حياة مشرقة يختارونها بإحساس عالٍ بالعدالة والحق ورفض الظلم...

والآن فقط، وبعد كل هذه السنين الطويلة استرددت حياتي، حتى ولو لم يتبق لي من الحياة سوى دقائق قليلة سوف أكون سعيدة لأنها بحوزتي وليست تحت وصاية الظلم والقهر.

❖ ❖ ❖

الكاتبة في سطور

§ كاتبة وروائية من مواليد غزة\فلسطين ، ومقيمة في عمان\الأردن

§ تعمل بالمحاماة ، ليسانس حقوق جامعة دمشق ، ماجستير في العلوم القانونية جامعة مونبليه-فرنسا

§ عضوة في اتحاد كتاب فلسطين \ عضوة في اتحاد كتاب مصر \ عضوة في نادي القصة في القاهرة

§ تم مناقشة أعمالها في العديد من الندوات في القاهرة وعمان

§ صـدر لها :

١. اللاعودة : قصص ،١٩٩٣

٢. جداول دماء وخيوط فجر : قصص ، ٢٠٠٤

٣. أنين مدينة : رواية ، ٢٠٠٥

٤. رائحة الميرامية : رواية ، ٢٠٠٥

٥. غيوم رمادية مبعثرة : رواية ، ٢٠٠٥

٦. أساور مهشمة : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠٠٩

§ البريد الإلكتروني : sana_shrar2@hotmail.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004/5 - (+2) 0188890065/64

شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net